إيان مكّيوان

الفناء الإسمنتي

ترجمة أسامة إسبر

إيان مكّيوان

الفناء الإسمنتي

روايات، مجموعة كلمات

جميع الحقوق محفوظة©

القسم الأوّل

الفصل الأوّل

لم أقتل أبي، لكني شعرتُ أحيانًا أنّي ساعدته على شقّ طريقه إلى عالم الموت. ولولا حقيقة أن موته تزامن مع علامةٍ فارقة في نموّي الجسدي، لغدا دون أهميّة بالمقارنة مع ما أعقب ذلك. تحدّثُ أنا وشقيقتاي عنه بعد أسبوع من وفاته، وقد أجهشتْ سو بالبكاء حين لفّه رجال سيّارة الإسعاف بغطاء أحمر فاقع ونقلوه بعيداً. كان رجلاً ضعيفاً وانفعاليًّا وموسوساً، يداه ووجهه يميلون إلى الاصفرار. وأذكر قصّة موته القصيرة هنا من أجل أن أبيّن فقط كيف حدث وصارت تلك الكميّة الكبيرة من الإسمنت تحت تصرّفنا.

في أوائل صيف سنَتِي الرابعة عشرة، صفّتْ شاحنة أمام منزلنا. كنت جالساً على العتبة الأمامية للبيت أعاود قراءة مجلة هزلية. سار السائق ومعه رجل آخر نحوي. كانا مكسوّين بغبارٍ دقيق وشاحب منح وجهيهما منظراً شبحياً. وكان كلاهما يصفر بحدة لحناً مختلفاً. نهضتُ وأزحت المجلة الهزلية بعيداً عن البصر. تمنّيت لو أنني كنت أقرأ صفحة سباق الخيول في صحيفة أبي أو نتائج مباريات كرة القدم.

قال أحد الرجلين: «إسمنت؟»

علقت إبهاميَّ في جيبيَّ، وحرّكتُ نفسي قدماً وضيّقتُ عينيَّ قليلاً. أردت أن أقول شيئاً مقتضباً وملائماً لكنني لم أكن متأكداً من أنني سمعتهما جيداً. صمتُّ طويلاً، فما كان من الذي تحدث إلا أن أدار عينيه نحو السماء،

وواضعاً يديه على ردفيه حدق فوقي إلى الباب الأمامي. انفتح الباب وخرج أبي، عاضاً على غليونه وحاملاً حافظةً أسندها إلى ردفه.

«إسمنت،» قال الرجل ثانية، وهذه المرة بنبرة صوت منخفضة. هزَّ والدي رأسه. طويت المجلة الهزلية ووضعتها في جيبي الخلفي وتبعت الرجال الثلاثة على الممر إلى الشاحنة. وقف أبي على رؤوس أصابع قدميه كي ينظر فوق طرف الشاحنة، أخرج غليونه من فمه وهز رأسه ثانية. ضرب الرجل الذي لم يتحدث بعد ضربة وحشية بيده فتحرر رتاج فولاذي وانفتح طرف الشاحنة محدثاً ضجة كبيرة. كانت أكياس الإسمنت الورقية المحزومة بإحكام مرتبة عميقاً في الداخل على أرضية الشاحنة.

أحصى والدي الأكياس، ونظر إلى حافظته وقال «خمسة عشر!» نخر الرجلان. أحببت هذا النوع من الحديث. قلتُ أيضاً لنفسي «خمسة عشر.» حمل كل رجل منهما كيساً على كتفه وعدنا سالكين الممر، وهذه المرة كنت أنا في الأمام ويتبعني أبي. وحين درنا عند أحد جوانب المنزل أشار بقصبة الغليون المبللة إلى فتحة الفحم[1]. ألقمَ الرجلان كيسيهما الفُتحة، ثم عادا إلى شاحنتهما لإحضار المزيد. وضع والدي علامة على الحافظة بقلم رصاص يتدلّى منها بقطعة خيط. تراجع إلى الخلف على كعبيه، منتظراً. استندت إلى السياج. لم أعرف لماذا جِيء بالإسمنت، ولم أرغب بأن أُقصى خارج

جماعة العمل هذه مُظْهراً الجهل. أحصيتُ الأكياس أيضاً، وحين انتهوا منها كلها وقفتُ قرب أبي بينما كان يوقّع وصل الاستلام. ثم عاد إلى الداخل دون أن يتفوه بكلمة.

في تلك الليلة تجادل أبي وأمي حول أكياس الإسمنت. ذلك أن أمي، والتي هي من النوع الهادئ، استشاطت غضباً. أرادت أن يعيد أبي الكمية كلها. كنا قد انتهينا لتونا من تناول العشاء. وبينما كانت أمي تتحدث استخدم أبي مطواة كي يكشط قشوراً سوداء من تجويف غليونه على الطعام الذي بالكاد لمسه. كان يعرف كيف يستخدم غليونه ضدها. قالت له إن النقود التي لدينا قليلة وإن توم سيحتاج في الحال إلى ثياب جديدة للذهاب إلى المدرسة. أعاد وضع الغليون بين أسنانه كقطعة مفقودة من بنيته الجسدية وقاطعها كي يقول إن أمرَ إعادة الأكياس «مستحيل» وأنّه قد «انتهى النقاش.» وبعد أن رأيت بنفسي الشاحنة والأكياس الثقيلة والرجلين الذين أحضراها، شعرت بأنه على حق. لكنه بدا مغروراً وأحمق إلى أقصى حد حين أخرج الغليون من فمه، وحمله من تجويفه وأشار بالمبسم المبلل إلى أمي. اشتد غضبها، واختنق صوتها من الحنق. اندفعتُ بسرعة أنا وجولي وسو وصعدنا الدرج نحو الطابق العلوي إلى غرفة نوم جولي وأغلقنا الباب. وقد وصل إلينا ارتفاع وانخفاض صوت أمنا من خلال الأرضية، لكن الكلمات لم تكن واضحة.

استلقت سو على السرير ضاحكة وبراجمها[2] في فمها، بينما وضعت جولي كرسياً وثبتته على الباب. عرّينا معاً سو بسرعة من ثيابها، وحين كنّا نُنزل بنطالها تلامست أيدينا. كانت سو نحيلة وجلدها مشدود بقوة على قفصها الصدري فيما الحافة العضلية القاسية لردفيها تشبه على نحو غريب لوحي كتفيها. كان شعر بنيّ زنجبيلي خفيف ينمو بين ساقيها. وكانت اللعبة هي أنني أنا وجولي عالمان يفحصان عينة من الفضاء الخارجي. تحدثنا بألفاظ ألمانية مختصرة ونحن نواجه بعضنا بعضاً فوق جسدها العاري. ومن الأسفل وصل إلينا الطنين المتعب والملحّ لصوت أمنا. عظام وجنتَي جولي عالية تحت عينيها، ما وهبها تلك النظرة العميقة لحيوان برّيٍّ نادر. وفي الضوء الكهربائي بدت عيناها سوداوين وكبيرتين. وكان الخط الناعم لفمها مكسوراً فحسب بسنّين أماميين، وعليها أن تتجهم قليلاً كي تخفي ابتسامتها. واشتهيت أن أفحص أختي الأكبر لكن اللعبة لم تسمح بذلك.

«حسناً»، أدرنا سو على جانبها، ثم على بطنها. داعبنا ظهرها وفخذيها بأظافرنا. ونظرنا في فمها وبين ساقيها بمصباح يدوي وعثرنا على الزهرة الصغيرة المصنوعة من اللحم.

«ما رأيك بهذا أيها الطبيب؟» داعبته جولي بإصبع مبلل فسرتْ رعشة خفيفة عبر الهيكل العظمي النحيل لسو. راقبتُ عن كثب. بللتُ إصبعي وأدخلته وراء إصبع

جولي.
«لا شيء يدعو للاهتمام»، قالت في النهاية، وأغلقت الشقّ بإصبعها وإبهامها «لكن سنبقى نراقب من أجل أيّ تطوّرات أخرى، حسنٌ؟» توسّلتُ إلينا أن نواصل. نظرتُ أنا وجولي إلى بعضنا بمعرفة، دون أن نعرف شيئاً.
قلت: «إنه دور جولي.»
قالت ما تقوله دوماً: «كلا، إنّه دورك.»
وهي ما تزال على ظهرها، توسلت إلينا. عبرتُ الغرفة، التقطتُ تنورة سو ورميتها لها.
قلتُ «مستحيل» عبر غليون خيالي «انتهى النقاش.»
حبست نفسي في الحمام وجلستُ على حافة الحوض وبنطالي حول كاحلي. فكرتُ بأصابع جولي الشاحبة البنية بين ساقيْ سو وأنا أقود نفسي إلى طعنة المتعة الجافة والسريعة الخاصة بي. بقيتُ منحنياً بعد أن مرَّ التشنج وانتبهتُ إلى أن الأصوات في الأسفل توقفت منذ وقت طويل.
في صباح اليوم التالي نزلتُ إلى القبو مع توم، أخي الأصغر. كان القبو كبيراً ومقسماً إلى عدد من الغرف التي لا فائدة منها. تعلّق توم بجانبي ونحن ننزل الدرج الحجري. سمع عن أكياس الإسمنت ويريد الآن أن يشاهدها. كانت فتحة الفحم الحجري مفتوحة على أكبر الغرف والأكياس متناثرة كما سقطت فوق ما تبقى من فحم العام الماضي. وإلى أحد الجدران استند صندوقٌ صفيحيٌّ ضخم، يعود إلى الفترة القصيرة التي

أمضاها أبي في الجيش، وقد استُخْدِمَ فيما مضى لتخزين فحم الكوك (coke) وفصله عن الفحم العادي (coal). أراد توم أن ينظر إلى الداخل، فرفعت الغطاء له. كان الداخل فارغاً ومسوداً، فلم نستطع في ذلك الضوء الغباري أن نرى القاع. معتقداً أنه يحدق في حفرة عميقة، أمسك توم الحافة وصاح في الصندوق وانتظر الصدى. وحين لم يحدث أي شيء طلب أن أريه الغرف الأخرى. أخذتهُ إلى الغرفة الأقرب إلى الدرج. كان بابها مخلوع المفصلات تقريباً وحين دفعته انخلع بشكل كامل. ضحك توم وعاد إليه أخيراً صداه من الغرفة التي غادرناها لتونا. وُضعت في هذه الغرفة علب كرتونية فيها ثياب متعفنة، غير مألوفة لي. وعثر توم على بعض لعبه القديمة. قلبها باحتقار بقدمه وقال لي إنها للأطفال. خلف الباب تكوم سرير أطفال نحاسي قديم نمنا جميعنا فيه، الواحد تلو الآخر، عبر السنين. أرادني توم أن أركّبه له فقلت له إن هذا السرير للأطفال فقط.

عند قدم الدرج التقينا بوالدنا وهو نازل. طلب مني أن أساعده في حمل الأكياس. تبعناه عائدين إلى الغرفة الكبيرة. كان توم خائفاً من أبينا فبقي خلفي. قالت لي جولي مؤخراً إن والدنا الآن شبه مريض ويتنافس مع توم على جذب انتباه أمنا. كانت فكرة فائقة للعادة وبقيتُ أفكّر فيها وقتاً طويلاً. كان ساذجاً وغريباً أن يتنافس صبي صغير ورجل ناضج. فيما بعد سألتُ

جولي من سيفوز، فقالت دون تردّد: «توم طبعاً، وسيوظّف والدنا هذا الأمرَ ضدّه.»

كان صارماً مع توم، ويعامله دوماً بطريقة قاسية. كان يستخدم والدتنا ضد توم بقدر ما استخدم غليونه ضدها. «لا تتحدث مع أمك هكذا» أو «اجلس منتصبًا حين تتحدث أمك معك.» وكان يتلقّى كل هذا صامتاً. وحين يغادر والدنا الغرفة تبتسم بشكل وجيز لتوم أو ترتب شعره بأصابعها. وكان توم يراقبنا الآن من المدخل نجر كل كيس بيننا على الأرض ونرتب الأكياس في صفين أنيقين عل طول الجدار. كان أبي ممنوعاً من ممارسة هذا النوع من العمل بسبب إصابته بنوبة قلبية لكنني حرصتُ على جعله يحمل من الوزن بقدر ما أحمل.

حين كنا ننحني ويمسك كل واحد منا بزاوية من الكيس شعرت بأنه يتأخر، وينتظرني كي أبذل الجهد. لكنني كنت أعدّ «واحد اثنان ثلاثة...» وأسحب فقط حين أرى ساعده يتصلّب. فإذا كان يريدني أن أبذل المزيد، فإنني أريده أن يطلب ذلك الآن وبصوت مرتفع. حين انتهينا وقفنا وخطونا إلى الخلف ناظرين إلى العمل كما يفعل العمال. استند والدي بيد واحدة إلى الجدار ملتقطًا أنفاسه بصعوبة. فتنفّستُ، عامِدًا، قدرَ الإمكان من أنفي، بخفّة، رغم أنّ ذلك أصابني بالدوار. أبقيت يدي بشكل عرَضي على ردفي.

«من أجل ماذا تريد كل هذا؟» شعرت أنني أمتلك الحق

في السؤال الآن.
انتزعَ الكلمات من بين أنفاسه «من أجل...الفناء.»
انتظرت المزيد. لكنّه بعد لحظات استدار كي يغادر. وفي الردهة أمسك ذراع توم.
«انظر إلى حالة يديك!» انتقد ذلك غير منتبه للأوساخ التي انتقلت من يديه إلى قميص توم. «هيّا اصعد خارجًا.»
تريّثت في الخلف لحظةً، ثم بدأت أطفئ الأضواء. وحين سمع الطقطقة، كما بدا لي، توقف أبي عند قدم الدرج وطلب مني بصوت حاد أن أطفئ كل الأضواء قبل الصعود.
«كنت أفعل هذا،» قلت باستياء. لكنه كان يسعل بصوت مرتفع وهو يصعد الدرج.
لقد بنى فناءه بدلاً من أن يحرثه ويعتني به وفقاً لخطط كان ينشرها أحياناً فوق طاولة المطبخ في المساءات بينما كنا نحدق من فوق كتفه. كانت هناك ممرات ضيقة من الحجر الرملي صنعت منحنيات متقنة للوصول إلى أحواض الزهور التي تبعد بضعة أقدام فقط. وكان أحد الممرات يلتف حلزونياً حول البقعة المحاطة بالصخور كأنه ممر جبلي. وقد استاء مرة حين شاهد توم يسير بشكل مستقيم إلى جانب البقعة المحاطة بالصخور، مستخدماً الممر كمجموعة قصيرة من درجات السلم.
«سِرْ عليه بحرص،» صاح من نافذة المطبخ. كانت هناك

بقعة معشوشبة بحجم طاولة للعب الورق ترتفع قدمين على كومة من الصخور. حول حافة البقعة فراغ لصف واحد من أزهار الأقحوان. وقد أطلق عليها وحدَه اسم الحديقة المعلّقة. ويقف في مركز الحديقة المعلقة تمثالٌ جصّي لِبَان الرّاقص[3]. وكانت تتناثر هنا وهناك مجموعات مفاجئة من الأدراج إلى الأسفل والأعلى. وهناك بركة ذات قاع بلاستيكي أزرق. جلب مرة إلى المنزل سمكتين ذهبيتين في كيس بلاستيكي. أكلتهما الطيور في اليوم نفسه. وكانت الممرات ضيقة بحيث من الوارد أن تفقد توازنك وتسقط في حوض الأزهار. اختار الأزهار لأناقتها وتناسقها. وكان يحب الزنابق أكثر من غيرها ويزرعها منفصلة بعضها عن بعض بشكل جيّد. لم يحب الأعشاب أو اللبلاب أو الورود. ولم يزرع أي شيء يتشابك. أُخليَت المنازل التي على جانبَي منزلنا من سُكّانها، ولهذا فإن أفنيتها في الصّيف تمتلئ بالأعشاب وأزهارها. قبل نوبته القلبيّة الأولى، كان قد نوى أن يبني سوراً مرتفعاً حول عالمه الخاص.

انتشرت بعض النكات في العائلة، استهلها وحافظ عليها أبي، ضد سو لأن لها تقريباً حاجبين ورموشاً غير مرئية، وضد جولي بسبب طموحاتها بأن تصبح رياضية مشهورة، وضد توم لأنه يبول في سريره أحياناً، وضد أمنا لكونها ضعيفة في الحساب، وضدي بسبب النمش الذي ظهرَ لتوّه في ذلك الوقت. وفي ساعة الغداء كنت أمرر له صحناً من الطعام فيقول إنه لا يريد طعامه أن

يقترب كثيراً من وجهي. كان الضحك فورياً وطقسياً. ولأن نكاتاً صغيرة كهذه كانت مدبرة من قِبَل أبي، فإنّ أيًّا منها لم يكن ضدّه.

في تلك الليلة أقفلتُ أنا وجولي باب غرفة نومها وانطلقْنا نملأ الصفحات بنكات فظّة أفرطنا في العمل عليها. بدا كلّ ما فكّرنا فيه مضحكاً. سقطنا عن السّرير إلى الأرض، قابضين على صدورنا، صارخين من المتعة. في الخارج كان توم وسو يخبطان على الباب طالبين الدخول. اعتقدنا أن أفضل نكاتنا هي تلك التي تقوم على طرح سؤال ما والنكتة هي جوابه. وكان عدد منها يشير إلى ما يعانيه والدنا من إمساك. لكننا عرفنا الهدف الحقيقي. انتقينا أفضلها بالنسبة لنا وصقلناها وتمرنّا عليها. ثم انتظرنا يوماً أو اثنين. في وقت العشاء، وكما يحصل عادة روى نكتة أخرى عن نمشي. انتظرنا أن يتوقف توم وسو عن الضحك. وخفق قلبي بشدة بحيث كان من الصعب أن أبدو عادياً، وميالاً إلى المحادثة، بالطريقة التي تمرنا عليها. قلت: «رأيت شيئاً ما في الحديقة اليوم صدمني.»

قالت جولي: «آه، ما هو؟»

«زهرة!»

لم يبد أن أحداً سمعنا. كان توم يتحدث مع نفسه. سكبت أمنا بعض الحليب في كوبها وواصل والدنا وضع الزبدة بعناية فائقة على شريحة خبز أمامه. حين تخطت الزبدة حافة خبزته أرجعها إلى الخلف بحركة

سريعة من سكينه. اعتقدت أنه ربما يجب أن نقولها بصوت مرتفع أكثر ونظرت عبر الطاولة إلى جولي.

قالت أمي: «لم يكن ذاك ضرورياً.»

«وما ذاك؟»

لم تقل شيئاً آخر لي. لم تنجح النكتة ضد أبي لأنها لم تكن مضحكة. قطّب جبينه. وشعرت بالذنب لأنني كنت متلهفاً كي أشعر بالابتهاج. حاولتُ إقناع جولي بنصرنا كي تقوم هي بدورها بإقناعي. جعلنا سو في تلك الليلة تستلقي بيننا لكن اللعبة لم تقدم لنا أية متعة. شعرت سو بالضجر وذهبت. لم أستطع مواجهة الأمر لكن بعد يومين حين تحدث معي للمرة الأولى شعرت براحة كبيرة. ثم لم يُذكر الفناء وقتًا طويلًا. وحين نشر خططه على طاولة المطبخ حتى غطّاها، راح ينظر إليها وحده. كان قد توقف عن العمل في الحديقة بعد نوبته القلبية الأولى. اندفعت الأعشاب عبر شقوق في أحجار الرصف. وانهار جزء من البقعة المحاطة بالصخور، وجفت البركة الصغيرة. وسقط بان الراقص على جانبه وانكسر نصفين ولم يقل أي شيء. كان احتمال أنني أنا وجولي مسؤولان عن تفكّك كلّ شيء قد ملأني بالرعب والمتعة في الوقت نفسه.

بعد وقت قصير من وصول الإسمنت، جاء الرمل. كومة صفراء شاحبة ملأت زاوية من الفناء الأمامي. صار واضحاً، ربما من خلال أمي، أن الخطة هي إحاطة المنزل من الأمام والخلف بسطح مستو من الإسمنت.

أكد أبي هذا في مساء أحد الأيام.
قال: «سيغدو أرتب. لم أعد قادراً على الاعتناء بالفناء» ثم ربت على صدره بغليونه «وذاك من شأنه أن يُبعد الطين عن أرضيّات أمَكم النظيفة!» كان مقتنعاً بعقلانية أفكاره فلم ينتقد أحد الخطة بسبب الحرج، لا الخوف. وفي الحقيقة، راق لي أن تكون هناك فسحة كبيرة من الإسمنت حول المنزل. ستكون مكاناً للعب كرة القدم. تخيلت مروحيات تهبط هناك. وقبل كل شيء، إن مزج الإسمنت وفرشه فوق فناء مستوٍ كان انتهاكاً فاتناً. وازدادت إثارتي حين تحدّث أبي عن استئجار خلّاطة إسمنت.
لا بد أن أُمّنا أقنعته بأن يعْدِل عن ذلك لأننا بدأنا العمل في صباح أحد أيام السبت بمجرفتين. فتحنا في القبو أحد أكياس الإسمنت الورقية وملأنا سطْلاً معدنيًا[4] بالمسحوق الدقيق الرمادي الشاحب. ثم انطلق والدي إلى الخارج كي يأخذ السّطل مني حين مرّرته له من فتحة الفحم. وحين مد يده لي إلى الأمام من الفتحة، كان قد صنعَ صورة ظِليّة له إزاء السّماء البيضاء التي دون ملامح خلفه. أفرغ المسحوق على الممر وأعاده إلي كي أملأه من جديد. وحين اكتفينا من مسحوق الإسمنت، خرجتُ من القبو وجلبتُ حمولةَ عربةٍ من الرّمل الموجود أمام المنزل، وأضفتها إلى كومة الإسمنت. كانت خطته هي بناء ممر صلب يُحيط بالمنزل، بحيث يصبح من السهل نقل الرمل من أمام

الفناء الأمامي إلى الخلف. وبصرف النظر عن تعليماته النادرة والمقتضبة، لم نقل شيئاً. وسرّني أنني عرفت بالضبط ما الذي كنا نفعله وما الذي كان الآخر يفكر به بحيث لم نحتج إلى التحدث. ولأوّل مرّة أشعر بالرّاحة معه. وبينما كنت أجلب الماء بالسّطل، خلط الإسمنت والرمل في كومة صانعاً تجويفاً في وسطها. كنت أقوم بالمزج بالمجرفة وهو يضيف الماء إلى الخليط. وعلمني كيف أسند ساعدي إلى ركبتي كي أكسب قوة أكبر. تظاهرت أنني أعرف هذا. وحين تناغم المزيج فرشناه على الأرض. ثم نزل والدي على ركبتيه ونعّم السطح بالجانب المستوي لِلَوْحٍ قصير. وقفتُ خلفه، مستنداً إلى مجرفتي. نهض وأسند نفسه إلى السياج وأغمض عينيه. حين فتحهما رفرفت عيناه كما لو كان متفاجئاً بالعثور على نفسه هناك وقال: «حسناً، لنعمل إذاً.» كررنا العملية، وحمولات السطل عبر فتحة الفحم والماء والمزج والتنعيم.

بات الضجر، في الكَرّة الرابعة، والرغبات المألوفة، يبطئون حركتي. تثاءبتُ مراراً وشعرت بالضعف يدبُّ في ساقيَّ وخلف ركبتي. في القبو وضعت يدي داخل بنطالي. وتساءلت أين شقيقتاي. لماذا لا تساعداننا؟ مررت سطلاً مليئاً لوالدي ثم موجهاً كلامي له قلت له إنني سأذهب إلى المرحاض. تنهّد وفي الوقت نفسه أصدر صوتاً بلسانه على سقف حلقه. في الأعلى، واعياً لفقدان أبي صبره، مارست العادة السرية بسرعة.

وكالعادة، الصورة التي تخيلتها هي يد جولي بين ساقي سو، بينما صوت المجرفة يتناهى إليّ من الأسفل. كان أبي يمزج الإسمنت بنفسه. ثم حدث الأمر، ورأيتُ السائل فجأة أمامي على قفا رسغي. رغم أنني أعرف عنه من خلال النكت وكتب البيولوجيا المدرسيّة، وكنت قد أمضيتُ شهورًا طويلة أنتظر خروجه، آملاً أنني طبيعي ولستُ مختلفًا عن الآخرين، فإنني دُهشت عندئذ وتأثّرت. فوق شُعيرات زغبيّة، وعند حافة لطخة إسمنتية رماديّة، لمعت بُقعة صغيرة من السّائل، لم تكن حليبيّة كما ظننت، بل دون لون. تذوّقتها بلساني لكنها كانت دون طعم. حدّقت فيها طويلاً، وتمعّنتُ أكثر باحثًا عن أشياء صغيرة بأذيال طويلة لامعة. وبينما كنت أراقبها تجفّ إلى قِشرة لامعة بالكاد تُرى، تشقّقَت حين ثنيت رسغي. قرّرت ألا أغسلها.

تذكرت أن أبي ينتظرني، فأسرعت نازلاً الدرج. كانت أمي وجولي وسو يقفون في المطبخ حين مررت. لم يشاهدنني. عثرت على أبي مُمدّدًا، وجهه إلى الأسفل، ورأسه على الإسمنت المصبوب حديثاً، بينما لوح التّنعيم في يده. اقتربت ببطء عارفاً أنني يجب أن أهرع فورًا لطلب المساعدة. لم أستطع الحركة عدّة ثوان. حدقت بتساؤل كما فعلت منذ عدة دقائق. نسيم خفيف حرك زاوية سائبة من قميصه.

بعد ذلك كان هناك كثيرٌ من الحركة والضجيج. جاءت سيارة إسعاف ذهبت أمي فيها مع أبي الذي وُضع على

محفة وغُطّي بغطاء أحمر. وفي غرفة الجلوس كانت سو تبكي وجولي تواسيها. وكان المذياع مُدارًا في المطبخ. عدت إلى الخارج بعد أن غادرت سيارة الإسعاف كي أنظر إلى ممرنا. لم تكن هناك فكرة في ذهني حين التقطت لوح التنعيم وساويت الإسمنت الطري الناعم، ماحياً عنه آثار أبي.

---

(1) فُرجة خارجيّة تُرمى عبرها أكياس الفحم لتنتهي إلى غرفة التخزين في القبو من أجل التدفئة.

(2) البرجم هو المفصل الظاهر من أصابع اليد ممّا يلي الأظافر.

(3) بان هو إله المراعي والصّيد البري (حسب الميثولوجيا الإغريقية). له قرون الماعز وأرجلها، ويظهر دومًا مرتديًا جلودها. وكثيراً ما ذُكر في الأساطير في الأدب الرعوي والموسيقى الرعوية.

(4) Zinc

الفصل الثاني

انتهى الصّيف. وخلال العام الدراسيّ الجديد، راحت جولي تتدرّب مع فريق ألعاب الرياضة المدرسيّ. كانت قد فازت في سباق الجري المحلّي، لمن هم تحت سن الثامنة عشرة، لمسافة ١٠٠ و٢٢٠ ياردة. وكان بوسعها أن تجري أسرع من أي شخص أعرفه. لم يأخذها والدنا قط على محمل الجد، بل قال إنه من عَتَه الفتيات أن يجرين بسرعة! وقُبيل موته بمدّة قصيرة رفض أن يأتي معنا إلى يوم المدرسة المفتوح للمنافسات الرياضيّة بين الطلاب. هاجمناه بحدّة، وقد انضمّت أمنا إلينا أيضًا. لكنّه راح يضحك من غضبنا. ربما نوى في الحقيقة أن يذهب، لكننا تركناه وحده وعبّرنا عن استيائنا بعضنا لبعض. وفي يوم المنافسات نفسه، لأننا لم نطلب منه مرافقتنا، نسيَ ولم يرَ أبدًا، في الشهر الأخير من حياته، ابنته الكبيرة وهي تغدو نجمة الملعب كله. فاتته رؤية الساقين السمراوين النحيلتين الشاحبتين تومضان بين الأعشاب الخضراء كالشفرات، وفاته أن يرانا أنا وتوم وأمّنا وسو نركض عبر الحيّز كي نغمر سو بالقبلات حين أتمّت دَورة الجري الثالثة. وأثناء المساءات، كانت تبقى في غالب الأحيان في المنزل كي تغسل شعرها وتكوي طيّات تنورتها المدرسيّة الكُحليّة. كانت واحدة من قلة من الفتيات الجسورات في المدرسة اللواتي يرتدين تنانير تحتيّة قصيرة (بيتيكوت) بيضاء ومُنشّاة كي تنفخَ تنانيرهن الخارجيّة الكحليّة الطويلة، فتنتشر

أطرافها في الهواء حين يلتفتنَ ويدُرن على كعوبهن. كانت ترتدي جوارب نسائيّة طويلة، وكلسونًا أسود، وذلك مُحرّم في المدرسة أشدّ التحريم. وكان عندها ترتدي بلوزة بيضاء نظيفة خمسةَ أيام في الأسبوع. وفي بعض الصباحات، تجمع شعرها عند مؤخّر عُنقها برباطٍ أبيض لامع. ذاك كلّه يتطلّب تحضيراً طويلًا كلّ مساء. ولهذا اعتدت على التواجد حولها ومراقبتها بينما تكوي ملابسها، لأضايقها.

لها في المدرسة، من الفتيان، أصدقاء كُثُر، لكنها لم تسمح لأيٍّ منهم الاقتراب منها. وكانت هناك قاعدة عائليّة غير منطوقة وهي ألّا يُحضر أيّ منا أصدقاء إلى المنزل. أصدقاؤها الأقرب إليها كُنّ بعض الفتيات الأكثر تمرّدًا، أو اللواتي لهن صيت. ورأيتها أحياناً في المدرسة في الطرف البعيد من الرواق محاطة بمجموعة صغيرة صاخبة، لكن جولي نفسها كانت متحفّظة بعض الشّيء ولا تمنح سوى القليل، فهيمنت على مجموعتها وراحت ترفع من صيتها بهدوء مُزعج ومروّع. وقد حظيتُ ببعض المكانة في المدرسة كوني شقيقاً لجولي لكنها لم تتحدث معي قط أو تعترف بوجودي.

في الفترة نفسها انتشرت البقع بشكل غزير على وجهي كله بحيث أنني تركت كل طقوس النظافة الشخصية. لم أعد أغسل وجهي أو شعري أو أقص أظافري أو أستحم. وتوقفت عن تنظيف أسناني بالفرشاة. وكانت أمي بطريقتها الهادئة توبخني باستمرار، لكنني شعرت

بفخر أنني خارج سيطرتها. قلتُ إذا أحبني الناس بالفعل فإنهم سيتقبّلوني كما أنا. وفي الصباح الباكر كانت أمي تدخل إلى غرفة نومي وتغير ملابسي المتسخة بأخرى نظيفة. وفي عطل نهاية الأسبوع كنت أستلقي في الفراش إلى ما بعد الظهر، ثم أقوم بنزهات طويلة منعزلة. وفي المساء كنت أراقب جولي، وأصغي للمذياع أو أجلس فحسب. ولم يكن لدي أصدقاء حميمون في المدرسة.

كنت غالباً أحدق في نفسي في المرايا، أحياناً مدّة ساعة. وفي صباح أحد الأيام، قبل وقت قصير من يوم ميلادي الخامس عشر، كنت أبحث في عتمة ردهتنا الكبيرة عن حذائي حين لمحت نفسي بأكملها منعكسةً على مرآة طويلة مُسندة إلى أحد الجدران؛ مرآة كان أبي ينوي أن يثبّتها إلى الجدار بطريقة آمنة. هناك ضوء ملوّن كان ينسكب عبر الزجاج المُعشّق الذي يعلو الباب الأمامي، فيضيء من الخلف الأنسجة المتناثرة من شعر رأسي. إن شِبه العتمة الضاربة إلى الشُّقرة ساوَت مُرتفعات بشرتي ومنخفضاتها، فشعرت بالنُّبل والفرادة. وحدقتُ في صورتي إلى أن انفصلت عنّي وراحت تنظر إليّ وتشلّني بنظرتها. ثم تراجعت عن ذلك، لكنّها عادت إليه مع كل نبضة من قلبي. ثم خفقت هالة سوداء فوق صورتي، فوق رأسها وكتفيها. «فظ» قالت لي «كم أنت فظ.» ثم راحت تصرخ بي «براز... بول... مؤخّرة.» بعدها، تناهى إليّ صوت أمي آتٍ من المطبخ، تصيح

بإسمي بصوتٍ مُنذرٍ ومُنهَك.
من إناء فاكهة أخذتُ تفاحة وذهبتُ إلى المطبخ. جلستُ بكسل في الردهة وراقبت العائلة تتناول الفطور وبدأت أقذف التفاحة بيدي إلى الأعلى وألتقطها بضربات قوية براحة كفي. كانت جولي وسو تقرآن الكتب المدرسية وهما تأكلان. أما أمي، المنهكة من ليلة أخرى دون نوم، فلم تكن تأكل. كانت عيناها الغائصتان دامعتين ورماديتين. وبأنّات استياء كان توم يحاول أن يدفع كرسيه كي يقترب منها راغباً بالجلوس في حضنها، لكنها شكت من أنه ثقيل جداً. رتبت الكرسي له ومرّرت أصابعها خلال شعرها.
كانت المسألة هي هل سترافقني جولي إلى المدرسة؟ اعتدنا الذهاب معاً كل صباح لكنها تفضل الآن ألا تُرى معي. واصلت قذف التفاحة متخيلاً أن ذلك يزعجهم جميعاً. راقبتني أمي بثبات.
«هيا يا جولي»، قلت أخيراً. أعادت جولي ملء كوبها بالشاي.
قالت بحزم: «لدي أعمال يجب أن أقوم بها. اذهب أنت.»
«ماذا عنك يا سو؟»
لم ترفع أختي الأصغر عينيها عن كتابها. تمتمت: «لست ذاهبة الآن.»
ذكرتني أمي بلطف أنني لم أتناول فطوري لكنني كنت قد سرت في طريقي عبر الصالة. أطبقتُ الباب الأمامي

بقوّة خارجًا، وعبرت الطريق. كان منزلنا، فيما مضى، يقف في شارعٍ يزدحم بالمنازل المشيّدة، لكنه يقف الآن في أرضٍ خواء، وأعشاب شوكيّة راحت تنمو حول الصفائح المعدنية[5] المنزوعة من أبنية المنازل المُزالة وقد أُلقيت هناك. هُدمت المنازل الأخرى من أجل طريق سريعة لم تُشَق أبداً. أحياناً يجيء أولاد من الأبراج السكنيّة المجاورة كي يلعبوا قرب منزلنا، لكنهم عادة يذهبون إلى أعلى الطريق، إلى البيوت الخاوية كي يرفسوا الجدران ويهدموها ويأخذوا ما يمكن أن يعثروا عليه. ومرة أشعلوا النار في أحدها ولم يكترث أحد كثيراً. كان منزلنا قديماً وكبيراً وقد بُني شبيهًا بالقِلاع نوعًا ما: جدرانه سميكة، ونوافذه عريضة، وتعلو الباب الأمامي فتحاتٌ في الطّوب[6]. وإذا ما شوهد من الجهة الأخرى من الطريق، فإنه سيبدو مثل وجه مُستغرق لأحدٍ ما، يحاول جاهدًا أن يتذكّر شيئًا.

لم يأت أحد لزيارتنا قط. إذ لم يكن لأمي أو لأبي، حين كان حياً، أي أصدقاء حقيقيين خارج العائلة. كان كل منهما طفلاً وحيداً وقد توفي جميع أجدادي. وكان لأمي أقرباء بعيدون في إيرلندا لم ترهم منذ طفولتها. وكان لتوم صديقان يلعب معهما أحياناً في الشارع، لكننا لم نسمح له أبداً بإدخالهما إلى المنزل. ليس هناك حتى بائع حليب في طريقنا الآن. وبقدر ما أستطيع التذكر كان آخر من زار المنزل هم رجال سيارة الإسعاف الذين أخذوا أبي بعيداً.

وقفت هناك عدة دقائق متردداً بين المضيّ، أو العودة لأقول شيئاً مُرضياً لأمي. كنت على وشك أن أتحرك حين فُتح الباب الأمامي وخرجت جولي. كانت تلبس معطفها الأسود الفضفاض الواقي من المطر، وقد حزمته بإحكام حول خصرها، بينما الياقة مرفوعة. استدارت بسرعة كي تُسند الباب الأمامي قبل أن ينغلق بعنف، فدار معها المعطف والتنورة والتنّورة الداخليّة، وكانت هذه هي الحركة المنشودة. لم ترني بعد. راقبتها وهي تعلق حقيبتها على كتفها. تستطيع جولي أن تركض كالريح لكنها مشت كما لو أنها نائمة، بطيئة جداً، منتصبة الظهر وفي خط مستقيم تمامًا. كانت تبدو أحياناً مستغرقة في تفكير عميق لكن حين نسألها تجيب دوماً محتجة أن ذهنها فارغ.

لم ترني إلا حين وصلت إلى الجهة الأخرى من الطريق ثم ابتسمت نصف ابتسامة وعبست نصف عبسة وبقيت صامتة. يخيفنا صمتها جميعاً، لكنها كانت تواصل الاحتجاج بصوت موسيقي منذهل كي تؤكد أنها هي الشخص الخائف. وكان هذا صحيحاً، فقد كانت خجولة، وقد سرت شائعة أنها لم تتحدث قط في الصف دون أن تحمرّ، لكنها تملك القوة الهادئة والاستقلال لتحيا في العالم المنفصل لأولئك الذين هم جميلون بشكل استثنائي ويعرفون هذا سريًا. سرتُ إلى جانبها ناظرًا إلى الأمام، ظهرها مستقيم كمسطرة، شفتاها مزمومتان بنعومة.

بعد مائة ياردة، وصل طريقنا إلى شارع آخر. ما زالت بضعة منازل بشرفاتها هناك. أما البقية، وكل المنازل في الشارع الذي في الجهة الأخرى، فقد أزيلت لفتح الطريق لمجموعات أبنية من ٢٠ طابقاً. كانت تنتصب في أردية واسعة من الإسمنت المتشقق حيث الأعشاب تندفع عبرها. بدت أقدم وأكثر كآبة من منزلنا، وعلى جوانبها الإسمنتية لطخ ضخمة سوداء تقريباً سبّبها المطر لم تجف أبداً. وحين وصلتُ أنا وجولي إلى نهاية الطريق ضغطتُ على رسغها وقلت «احملي حقيبتك يا آنسة.» سحبت جولي ذراعها بعيداً وواصلت المشي. تراجعت إلى الخلف في طريقها. حولني صمتها المتفكر إلى شخص مزعج.

«هل تريد أن تقاتل؟ هل تريد أن تسابق؟» أخفضت جولي عينيها وواصلت طريقها. قلت بصوت طبيعيّ: «ما المشكلة؟»

«لا شيء.»

«هل أنت مستاءة؟»

«نعم.»

«مني؟»

«نعم.»

توقفتُ قبل أن أتحدث ثانية. كانت جولي قد اندفعت مبتعدة ومنشغلة الذهن ربما بغضبها. قلت: «بسبب أمنا؟» كنا نقترب من أوّل الأبراج السكنيّة، وقد استطعنا أن نرى داخلها إلى الرّدهة. احتشدت مجموعة

من الصبية من مدرسة أخرى حول فتحة المصعد. استرخوا على الجدران دون أن يتكلموا. كانوا ينتظرون شخصاً نازلاً في المصعد. قلت: «سأعود إذاً.» توقفتُ. هزت جولي كتفيها وقامت بحركة مفاجئة بيدها أوضحت أنها ستتركني خلفها.

حين عدت إلى شارعنا التقيت بسو. كانت تسير بكتاب مفتوح أمامها وحقيبتها معلقة بإحكام وعالية على كتفيها. وكان توم يسير على بعد بضع ياردات في الخلف. كان واضحاً من النظرة على وجهه أن هناك مشهداً آخر أخرجه من المنزل. كنت أشعر بارتياح أكبر مع سو فهي أصغر مني بعامين وإذا كان لديها أسرار فإنها لا تخيفني. ومرة رأيت في غرفة نومها غسولاً اشترته كي تزيل نمشها. وجهها طويل وبالغ الرقة، عيناها دون لون وصغيرتان وتبدوان متعبتين برموش واهنة وغير مرئيّة تقريباً. وبدت أحياناً بجبينها العالي وشعرها الدقيق كفتاة من كوكب آخر. لم نتوقف، لكن فيما كنا نعبر، رفعت سو نظرها عن كتابها وقالت: «ستتأخّر.»

قلت: «نسيت شيئاً ما.» كان توم منشغلاً بمقته الخاص للمدرسة فلم يلاحظني. وقد ازداد شعوري بالذنب حين عرفت أن سو تأخذه إلى المدرسة كي توفر على أمنا السير، فمشيتُ بسرعة أكبر.

درت حول المنزل إلى الفناء الخلفيّ وراقبتُ أمي من خلال إحدى نوافذ المطبخ. كانت تجلس إلى الطاولة

التي عليها فوضى فطورنا وأمامها أربعة كراسٍ فارغة. أمامها مباشرة إنائي من حسَاء الشّوفان والذي لم ألمسه. كانت إحدى يديها في حضنها والأخرى على الطاولة، ذراعها مثنيّة كما لو أنها مستعدّة لاستقبال رأسها. رأيت زجاجة سوداء قصيرة قربها تحتوي على أقراص دوائها. وجهها يجمع بين ملامح كلٍّ من جولي وسو، كما لو أنها ابنتهما. الجلد ناعم ومشدود فوق عظمتَي وجنتيها الجميلتين. وكانت ترسم على شفتيها كل صباح قوساً تاماً بالأحمر الغامق. لكن عينيها، الموضوعتين في جلد غامق مجعد مثل نواة الخوخ، غائصتان عميقاً في جمجمتها، وبدت كما لو أنها تنظر من بئر عميقة. مسدت الخصل الكثيفة السوداء في قفا رأسها. وفي بعض الصباحات كنت أجد عُشًّا من شعرها يطفو في المرحاض. وكنت دائماً أدفق الماء عليه. الآن وقفتْ ثم بدأت تنظف الطاولة وهي تدير لي ظهرها.

حين كنت في الثامنة من عمري عدتُ من المدرسة في أحد الأيام متظاهراً بأنني مريض جداً. لاطفتني أمي. ألبستني بيجامتي وحملتني إلى الأريكة في غرفة الجلوس، وغطّتني. كانت تعرف أنني رجعت إلى المنزل كي أحتكرها بينما كان أبي وشقيقتاي خارج المنزل. ربما كانت سعيدة أن أحداً معها في المنزل أثناء النهار. استلقيت حتى وقت متأخر بعد الظهر، وراقبتها وهي تقوم بعملها، وحين تكون في جزء آخر من المنزل كنت أصغي بانتباه. ذهلت من الحقيقة الواضحة لوجودها

المستقلّ عنّا. كانت تواصل ذلك، حتى حين أكون بعيداً في المدرسة. كانت هذه هي الأشياء التي تفعلها. واصل الجميع ما يفعلونه. حينها، كان مشهدُ أمي امامي وما تفعله ينحفر في ذاكرتي، لكنّه لم يؤلمني، كالآن، إنني أراقبها تنحني كي تزيل قشور البيض عن الطاولة وترميها في سلة القمامة، المشهد القديم نفسه لكنّه بات الآن يبعث على الحزن والضّيق، في مزيج لا يُحتمل. لم أخترع والدتي أو أخلقها، ولم تكن أيضًا اختراعَ شقيقتيَّ، فلها وجودها المستقلّ السّابق عنّا، لكنّي واصلت اختراعها وتجاهل الحقيقة. وبينما كانت تُحرّك زجاجة حليب فارغة، التفتت فجأة نحو النافذة حيث أقف. تراجعتُ بسرعة. وبينما كنت أركض على الممر الجانبي سمعتها تفتح الباب الخلفي وتناديني. لمحتها وهي تسير حول زاوية المنزل. نادتني مرة ثانية بينما أنطلق إلى الشارع. ركضت الطريق كلّه متخيلاً صوتها فوق طريق أقدامي على الرصيف.

«جاك... جاك...»

لحقتُ أختيَ سو بينما كانت تنعطف لتدخل من بوّابات المدرسة.

Corrugated tin (5)

Crenellations (6)

الفصل الثالث

عرفت أنه كان الصباح، وعرفت أنني حلمتُ حلماً سيئاً. وبقوة الإرادة استطعت إيقاظ نفسي. حاولت أن أحرك ساقيَّ، أن أجعل قدماً تلمس الأخرى. إن أي إحساس ضئيل سيكون كافياً كي يعيدني من حلمي إلى العالم المحسوس. تبعني شخصٌ لم أستطع تبيّنه، يحمل علبة في بيديه، ويريدني أن أنظر داخلها، لكنني أسرعت مبتعدًا. توقفت لحظة وحاولت تحريك ساقي ثانية أو فتحَ عيني. لكن شخصاً كان يقترب حاملًا العلبة، لم يكن هناك وقت وكان عليَّ أن أركض. ثم تقابلنا وجهاً لوجه. العلبة خشبيّة ومزودة بمفصلات، ربما احتوت مرة على سيجار غالي الثّمن. رفع الغطاء نصفَ إنشٍ تقريبًا، وكان الظّلام شديدًا فلا تمكن الرؤية في الداخل. ركضت كي أكسب بعض الوقت فنجحت هذه المرّة في فتح عيني. وقبل أن تُغمضا مجددًا، رأيت غرفة نومي، وقميصي المدرسيّ مُلقًا على الكرسي، والحذاء مقلوباً على الأرض. رأيت العلبة ثانية. عرفت أن هناك مخلوقاً صغيراً في الداخل، أُسِرَ بالقوّة وتفوح منه رائحة منتنة على نحو مريع. حاولت أن أصيح مستغيثًا، آملاً أن أوقظ نفسي بصوتي. لم يغادر صوتي حنجرتي، ولم أستطع حتى أن أحرك شفتيَّ ثانية. لم أستطع أن أستدير وأهرب ذلك أنني كنت أركض طوال الليل، والآن لا خيار لي إلا أن أنظر في الداخل. شعرتُ براحة كبيرة حين سمعتُ باب غرفة نومي ينفتح ووقْع خطوات على

الأرض. أحد ما كان يجلس على حافة سريري، تماماً إلى جانبي، فاستطعتُ أن أفتح عينيَّ.

كانت أمي تجلس بطريقة تُبقي معها ذراعيَّ طيَّ أغطية الفراش. الساعة هي الثامنة والنصف حسب منبهي، سأتأخر عن المدرسة. لا بد أن أمي استيقظت منذ ساعتين. كانت تفوح منها رائحة ذاك الصابون الورديّ المتألق الذي تستخدمه دومًا. قالت: «حان الوقت كي نتنزّه، أنت وأنا.» وضعتْ ساقاً فوق أخرى وأراحت يديها على ركبتيها. كان ظهرها مستقيماً جداً كظهر جولي. رغم مرضها الذي كان ينال منها، غير أنّها حافظت على الجلوس منتصبة الظَّهر على الدوام. شعرتُ بضعفي ووهني كوني أستلقي على ظهري جوارها، فصارعت كي أجلس منتصباً. لكنها قالت: «امكث مستلقيًا لحظة.»

قلت: «سأتأخر.»

«امكث مستلقيًا لحظة»، كرّرَت بتركيز ثقيل على الكلمة الأخيرة «أريد أن أتحدث معك.»

خفق قلبي بسرعة، تجاوزتها بنظرتي محدقًا في السقف. بالكاد كنت خارج حلمي.

قالت: «انظر إلي. أريد أن أنظر إلى عينيك.»

نظرتُ في عينيها اللتين طافتا بقلق عبر وجهي. رأيت انعكاسي المنتفخ نفسه.

قالت: «هل نظرت إلى عينيك في مرآة مؤخراً؟»

قلت كاذباً: «كلا.»

«بؤبؤاك كبيران جداً، هل تعرف هذا؟» هززتُ رأسي.
«وهناك انتفاخ تحت عينيك رغم أنك استيقظت للتوّ.»
توقفتُ. استطعت أن أسمع الآخرين في الطابق الأرضي يتناولون طعام الفطور «وهل تعرف سبب هذا؟» هززت رأسي ثانية، وتوقفتُ ثانية. ثم مالت إلى الأمام وتحدثت بنبرة جادّة أكثر «تعرف عن ماذا أتحدث. أليس كذلك؟» خفق قلبي في أذني.
«كلا.»
«بلى، تعرف يا ولدي. تعرف عن ماذا أتحدث، أستطيع أن أرى ذلك.»
لم يكن لدي خيار سوى أن أؤكد هذا بصمتي. إن هذه الشدّة لم تناسبها مطلقاً، كانت هناك نبرة خافتة استعراضيّة في صوتها، الطريقة الوحيدة التي تستطيع أن توصل بها رسالتها الصعبة.
«لا تظنّ أنني لا أعرف ما يجري. أنت تكبر، وصرت شاباً الآن، وأنا فخورة جداً بك... هذه أمور كان والدك ليقولها لك.»
نظرنا بعيداً. كلانا يعرف أن هذا لم يكن صحيحًا.
«إن النمو صعب، لكن إذا واصلت بالطريقة نفسها فإنك ستؤذي نفسك كثيراً، ستؤذي جسمك.»
«أذى...» ردّدت الكلمة.
«نعم، انظر إلى نفسك» قالت بصوت أنعم «لا تستطيع أن تنهض في الصباحات، أنت متعب طيلة اليوم، ومزاجيّ، لا تغتسل ولا تغير ثيابك، وقح مع شقيقتيك

ومعي. وكلانا يعرف السبب. كلما...» وأرسلت نظرتها بعيدًا، ثم بدلاً من أن تحُط عينيها عليّ، حدّقت في يديها اللتين في حضنها «كلّما فعلت ذلك احتاج الأمر إلى نصفَي لتر من الدم لتعويضه.» نظرتْ إليَّ بتحدٍّ.

«دم!» همست. مالت إلى الأمام وقبّلتني بخفة على خدي.

«لا يزعجك كلامي هذا، أليس كذلك؟»

«كلا، كلا»، قلت. ثمّ نهضَت.

«يوماً ما، حين تصبح في الواحد والعشرين من عمرك، ستفهم المسألة وتشكرني لأنني قلت لك ما أقوله الآن.» هززت رأسي. انحنت فوقي وبحنان لعبت بشعري ثم غادرت الغرفة بسرعة.

لم أعد أنا وشقيقتاي نلعب معاً في سرير جولي. توقفت الألعاب بعد وقت قصير من وفاة أبي بالرغم من أن موته ليس هو الذي أنهاها. لقد صارت سو متردّدة. ربما تعلّمَت شيئاً ما في المدرسة وشعرت بالخجل من فِعلنا لهذه الأشياء لها. لم أكن متأكداً تمامًا لأنه لم يكن أمرًا نستطيع التحدث عنه. وجولي أكثر بُعداً الآن. تضع المساحيق وتحمل من الأسرار المختلفة الكثير. وفي صف الغداء في المدرسة، سمعتها مرة تتحدّث عنّي قائلة إنني أخوها الصّغير، فوخزني ذلك. كانت تتبادل أحاديث طويلة مع أمنا في المطبخ، أحاديث تنقطع إذا دخلتُ أنا أو توم أو سو فجأة. ومثل أمي، كانت جولي توجّه لي ملاحظات عن شعري وثيابي لكن دون تلطُّف،

بل باحتقار.
كانت تقول كلّما حدث خلاف بيننا «تفوح منك رائحة نتنة. فعلاً أنت كذلك. لماذا لا تغير ثيابك مطلقًا؟»
دفعتني ملاحظات كهذه إلى أن أكون عدوانيًا.
«اللعنة عليك»، كنت أقول لها وأذهب لأقبض على كاحليها، مصمّمًا أن أدغدغها إلى أن تموت من الإعياء.
كانت تصرخ: «أمي، أمي تحدّثي إلى جاك!»
وكانت أمي تنادي بصوت متعب من أي مكان يصادف أنها فيه: «جاك!»
في المرة الأخيرة التي دغدغتُ فيها جولي، انتظرتُ إلى أن ذهبت أمي إلى الطبيب، فلبستُ قفّازَيْ بَسْتنة ضخمين ومتّسخين، كان آخر من لبسهما هو أبي. تبعتُ جولي إلى غرفة نومها. كانت تجلس إلى مكتب صغير تستخدمه لكتابة واجباتها المدرسيّة. وقفت في المدخل بينما يداي وراء ظهري.
«جئت لأنال منك» قلت ببساطة ونشرت يدي الضخمتين نحوها بأصابع ممدودة. جعلها منظر الأشياء المتقدمة نحوها واهنة. حاولَت النهوض لكنها سقطت على الكرسي.
«تجاسر على ذلك!» واصلت القول من خلال ضحكاتها المتصاعدة.
«تجاسر فحسب!»
كانت اليدان الكبيرتان ما تزالان على بعد بضعة إنشات منها، وكانت تذوي في كرسيها، ثم راحت وتصرخ

«كلا... كلا... كلا...»

قلت: «نعم! حان أجلك!» سحبتُها من ذراعها إلى سريرها. استلقتْ بينما ركبتاها مرفوعتان إلى الأعلى، ويداها مرفوعتان لحماية حنجرتها. لم تجرُؤ على إبعاد عينيها عن اليدين الكبيرتين اللتين كانتا فوقها، وجاهزتين للانقضاض.

«ابتعدْ عني»، همست. وقد كان مضحكاً بالنسبة لي أنها كانت تخاطب القفّازين، لا أنا!

قلت، وقد أنزلت يدي نحوها بضعة إنشات: «إنهما قادمتان إليك، لكن لا أحد يعرف أين سينقضّان أوّلاً!»

حاولَت أن تمسك رسغيَّ، لكن قبضتها كانت مرتخية. زلقتُ يدي تحت يديها وقمتُ بتثبيت القفازين بإحكام حول قفصها الصدري، تماماً تحت إبطيها. وفيما كانت جولي تضحك وتقاتل من أجل الهواء، ضحكتُ أنا أيضًا مستمتعًا بقوّتي. شعرتُ أنّ ذُعرًا ما كان يتخلّل ضرباتها. لم تستطع أن تتنفّس. حاولتْ أن تقول «من فضلك» لكنني لم أستطع التوقف بسبب ابتهاجي. كان الهواء ما يزال يغادر رئتيها في قرقرة كقرقرة الطيور. إحدى يديها تنتف المادة الخشنة للقفاز. وحين تحركت إلى الأمام كي أكون في موقع أفضل للإمساك بها، شعرت بسائل ساخن ينتشر على ركبتي. مرعوباً قفزت من السرير ونزعت القفازين من يدي. تحوّلت ضحكات جولي الأخيرة إلى بكاء متعَب. استلقت على ظهرها والدموع تنهمر على عظام خدّيها وتضيع في شعرها.

فاحت من الغرفة رائحة بول خفيفة. التقطتُ القفاز عن الأرض.

أدارت جولي رأسها وقالت ببلادة: «اخرج!»

قلت: «آسف.»

«اخرج!»

كان توم وسو في المدخل يراقبان.

«ماذا حدث؟» سألت سو بينما أعبر جوارها خارجًا.

«لا شيء»، قلت، وأغلقت الباب بهدوء.

في مثل هذا الوقت تقريباً بدأت أمي تأوي إلى فراشها وتمكث فيه لفترات طويلة جدًا. قالت إنها بالكاد تستطيع البقاء مستيقظة.

قالت: «بضع ليال وحسب ثم أعود إلى وضعي السابق.»

هذا ما جعل جولي مسؤولة عن العشاء ووقت النوم.

كنت أنا وسو في غرفة الجلوس نصغي إلى المذياع.

جاءت جولي وأطفأته.

«هل لك أن تفرغ سلّة المخلّفات؟» قالت لي «واحمل صناديق القمامة إلى مقدّمة المنزل.»

«اغربي عن وجهي» صحت بها «كنت أصغي إلى هذا!»

ونهضتُ لأطالَ زرّ التشغيل.

غطّته جولي بيدها. ما زلت أشعر بالعار من هجومي السّابق عليها، فلم أصارعها. وبعد بضع كلمات من المقاومة الشكليّة، كنت في الخارج حاملًا صناديق القمامة. حين عدت كانت سو تقف إلى مغسلة المطبخ تقشّر البطاطس. فيما بعد، حين جلسنا كي نأكل، ساد

صمت متوتر بدلاً من الشجار المعتاد. حين نظرت إلى سو ضحكت. لم تنظر جولي إلينا وتحدثتْ بصوت منخفض مع توم. حين غادرت الغرفة لحظة كي تأخذ صينيّة طعام إلى الأعلى، رفستُ أنا وسو بعضنا تحت الطاولة وضحكنا. لكنّنا توقفنا حين سمعناها تعود.

لم تعجب توم هذه المساءات الخالية من أمه. كانت جولي تجبره على أكل ما في صحنه كلّه ولم تسمح له أن يزحف تحت الطاولة كي يُصدر ضجيجاً مضحكاً كعادته. وما أغضبه أكثر هو أن جولي لم تسمح له بالدخول إلى غرفة نوم أمنا وهي نائمة. وكان يضطر أن يتسلق وينام قربها مرتديًا ثيابه كلّها. كانت جولي تمسكه من رسغه وهو في طريقه إلى الأعلى، قائلة بهدوء: «ليس إلى هناك، أمنا نائمة» فيطلق توم زئيراً رهيباً لكنه لا يقاوم حين تجره جولي وتعيده إلى المطبخ. كان هو أيضاً خائفاً منها. صارت فجأة منفصلة عنّا ومتأكدة تماماً من سُلطتها. أردت أن أقول لها: «هيا يا جولي! توقفي عن التظاهر! نعرف من أنت حقاً!» وواصلتُ النظر ناحيتها. لكن لم أحظ بنظرة استجابة. واصلتُ انشغالها والتقت عيناها بعيني لحظات وجيزة.

تجنّبت أن أكون وحدي مع أمي كي لا تتحدث معي ثانية في ذاك الشّأن. وعرفتُ من المدرسة أنها فهمت الأمور خطأ. لكن، في كل مرة أقوم بالأمر الآن، مرّة أو مرتين في اليوم، تمر في ذهني صورة زجاجتَي حليب سعة نصف لتر، مليئتين بالدم ومغلقتين برقاقتين

فضيّتين. وصرتُ أمضي وقتاً أطول مع سو. بدت كأنها مُعجبة بي، أو على الأقل مستعدّة لتجاهل ما لا تحبه فيّ. وكانت تمضي كثيرًا من وقتها في المنزل، وتقرأ في غرفة نومها، ولم تعترض أبداً على استلقائي هناك. كانت تقرأ روايات عن فتيات في مثل عمرها، في الثالثة عشرة أو ما يقارب ذلك، قُمنَ بمغامرات في مدارسهن الداخليّة. وكانت تستعير من المكتبة المحليّة كتباً ضخمة مزيّنة برسوم الديناصورات أو البراكين أو أسماك البحيرات الاستوائية. وكنت أحياناً أُقلّب صفحاتها ناظراً إلى الصّور. لم تهمني المعلومات. وكنت أشكّك في رسومات الديناصورات، فقلت لسو إنه لا أحد يستطيع أن يعرف في الحقيقة كيف كانت تبدو. حدّثتني عن الهياكل العظمية وكل الدلائل المتوفرة للمساعدة في إعادة بناء أشكالها. تجادلنا طيلة فترة ما بعد الظهر. كانت تعرف أكثر مني لكنني كنت مصمماً على ألّا أجعلها تفوز. أخيراً، ضجرنا وتضايقنا وصرنا متجهمين، فتركنا بعضنا. لكن في معظم الأحيان كنا نتحدث، كمتآمرَين، عن العائلة وكل الناس الذين نعرفهم، ونحلّل بعناية سلوكهم ومظهرهم، و'كيف كانوا في الحقيقة.' تساءلنا كم كانت أمنا مريضة. سمعَتْها سو تقول لجولي إنها ستغيّر طبيبها مرّة ثانية. اتفقنا أن أختنا الأكبر صارت أكثر أهمية ممّا تستحق. لم أكن في الحقيقة أفكر بسو كفتاة الآن. كانت، على عكس جولي، مجرّد أخت، أو شخص. وفي أصيل يوم أحَدٍ طويل،

دخلت جولي أثناء محادثة كنا نخوضها عن والدينا. كنت أقول إنهما يكرهان بعضهما في السّر، وإن أمنا ارتاحت حين مات والدنا. جلست جولي على السرير قرب سو ووضعت ساقاً فوق أخرى وتثاءبت. توقفت وتنحنحت.

قالت جولي: «تابع. يبدو ما تقوله مهمًّا.»

قلت: «لا شيء يُذكر.»

«آه»، قالت جولي. احمرّت قليلاً ونظرت إلى الأسفل. تنحنحت سو الآن وانتظرنا جميعاً.

قلتُ بغباء: «كنت أقول فقط إنني لا أعتقد أن أمي أحبّت أبي في الحقيقة.»

«لم تحبه؟» قالت جولي باهتمام ساخر. كانت غاضبة.

قلت: «لا أعرف. ربما تعرفين.»

«لماذا يجب أن أعرف؟»

خيّم صمت آخر. ثم قالت سو: «لأنك تتحدثين معها أكثر منا.»

عَبّرت جولي عن تعاظم غضبها بصمتٍ متزايد. نهضتْ. وحين عبرتْ الغرفة استدارت في المدخل وقالت بهدوء: «ذاك لأنكما أنتما الاثنان لا تفعلان أي شيء يتعلّق بها.»

توقّفَت عند الباب منتظرة جواباً، ثم ذهبت تاركة خلفها رائحة عطر خفيفة.

في اليوم التالي، بعد المدرسة، عرضتْ على جولي أن أرافق أمي إلى الدكاكين.

قالت: «ليس هناك ما يستدعي حملَه.» كانت تقف في الردهة المظلمة تربط شالها وهي تنظر في المرآة.

قلت: «أشعر برغبة في المشي.»

سرنا صامتين عدّة دقائق، ثم وضعت ذراعها حول ذراعي وقالت لي: «عيد ميلادك قريب جداً.»

قلت: «نعم هذا صحيح.»

«هل من المثير بالنسبة لك كونك أصبحت في الخامسة عشرة من عمرك؟»

«لا أعرف.»

بينما كنا ننتظر في الصيدليّة من أجل وصفة لأمي، سألتها ما الذي قاله الطبيب. كانت تفحص لوح صابون ملفوفٍ كهديّة في صحن بلاستيكي. أعادته مكانه مبتسمة.

«آه، يقولون كلاماً فارغاً، كلّهم. لن أعودَ إلى أيٍّ منهم...» وأشارت برأسها إلى طاولة الصيدلية قبل أن تتابع «طالما أحصل على أقراص الدواء!»

شعرت بالراحة. جاءت الوصفة أخيراً في زجاجة بنية ثقيلة عرضتُ عليها أن أحملها لها. في الطريق إلى المنزل اقترحتُ أن نرتب حفلة صغيرة لعيد ميلادي أدعو إليها بعض الأصدقاء من المدرسة.

قلت على الفور: «كلا. لنحتفل مع الأسرة فقط.»

وفيما تبقّى من الطريق إلى المنزل، وضعنا الخطط وكنا سعيدين لأن لدينا أخيراً شيئاً نتحدث عنه. تذكّرتُ أمي حفلةً قمنا بها في عيد ميلاد جولي العاشر. تذكرتُها أنا

أيضًا. كنت في الثامنة من عمري. وبكت جولي لأن أحداً ما أخبرها أنه لم يعد هناك أعياد ميلاد لها بعد أن أصبحت في العاشرة. صارت هذ نكتة عائلية بعضَ الوقت. لم يذكر أي منا التأثير الذي أحدثه والدي في هذه الحفلة والحفلات الأخرى التي أستطيع تذكّرها. كان يحبّ أن يقف الأطفال في صفوف أنيقة منتظرين دورهم في لعبة يقوم بتنظيمها. كان يزعجه جداً الضجيج والفوضى، والأطفال الذين يتحركون عشوائياً. لم تمر حفلة عيد ميلاد دون أن يفقد فيها سيطرته على أعصابه مع شخص ما. في عيد ميلاد سو الثامن حاول أن يرسلها إلى السرير لأنها شاكسَت قليلًا. تدخّلت أمنا، وكانت تلك آخر الحفلات، لم تُنظَّم واحدة لتوم قط. وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى البوابة الأمامية، صمتنا. وفيما كانت تبحث في حقيبتها اليدويّة عن مفتاح الباب الأمامي، تساءلتُ ما إذا كانت سعيدة لأننا، هذه المرة، سنُقيم حفلة دون أبي.

قلت: «للأسف والدنا لن يكون...»

فقالت: «المسكين. كان ذلك ليجعله فخوراً بك أشدّ الفخر.»

قبل يومين من عيد ميلادي، أوت أمي إلى فراشها ولم تقُم.

قالت حين دخلتُ أنا وسو كي نراها: «سأستيقظ في الوقت المناسب. لست مريضة، أنا متعبة جداً فحسب.»

حتى وهي تتحدث إلينا، كانت عيناها بالكاد مفتوحتين.

كانت قد أعدّت قالب كعكٍ وزينته بدوائر مُتّحدةِ المركز، حمراء وزرقاء. وفي المركز انتصبت شمعة، ما أمتع توم كثيرًا.

صاح: «أنت لست في الخامسة عشرة من العمر! بل تكون دائمًا في عامك الأوّل في يوم عيد ميلادك!»

باكراً في الصباح، دخل توم إلى غرفتي وقفز على سريري.

«استيقظ، استيقظ، إن عمرك اليوم هو سنة واحدة فقط!»

أثناء الفطور قدّمت لي جولي، دون تعليق، حقيبة جلديّة صغيرة فيها مشط معدني ومقص أظافر. وقدّمت لي سو رواية خيال علميّ، يحمل غلافها وحشًا كبيرًا ذا مجسّات يطوّق بها مركبة فضائيّة، وفي الخلفيّة سماء سوداء تثقبها نجوم وهّاجة. رفعتُ صينية أمّي كي آخذها لها إلى غرفتها. حين دخلتُ، كانت تتمدّد على ظهرها وعيناها مفتوحتان. جلستُ على حافة سريرها ووازنتُ الصينية على ركبتيَّ. فجلست مستندة إلى وسائدها واحتست شايها. ثم قالت: «عيد ميلاد سعيد يا بني. لا أستطيع التحدث في الصباح إلا بعد أن أشرب شيئاً.»

تعانقنا بارتباك فوق كوب الشاي الذي ما زالت تمسك به بيدها. فتحتُ الظّرف الذي قدّمَته لي. داخل بطاقة عيد الميلاد، كان هناك جُنيهان. على البطاقة صورة لمجرّة فضائيّة، وكومة من الكتب المجلدة بالجلد، وعُدّة صَيد

سمك، وكُرة كريكيت. عانقتها ثانية فأصدرت صوتاً إثْرَ تحرّك الكوب في صحنه، «أوبس!» جلسنا معاً بعضَ الوقت، كانت تشدّ على يدي، وكانت يدها صفراء وهزيلة كقدم دجاجة، كما ظننت.

استلقيت طيلة الصباح في سريري أقرأ الكتاب الذي أهدتني إيّاه سو. كانت أول رواية أقرأها إلى النهاية. خلايا صغيرة حاملة للحياة تندفع في سحب عبر المجرات لمستها أشعة خاصة من شمس تنطفئ، ففقست وخرج من أحدها وحش عملاق يتغذّى على أشعة إكس، وبات يُرهب الآن المواصلات الفضائية المنتظمة بين الأرض والمريخ. كانت مهمة هَنْت، القائد العسكري، ليس القضاء على هذا الوحش فحسب بل والتخلّص من جثّته العملاقة أيضًا.

قال أحد العلماء للقائد في أحد اجتماعاتهم الكثيرة: «إنّ تَرْكَه يندفع إلى الأبد في الفضاء لن يُلغي خطر اصطدامه بأيّ شيء، ومن يعرف ماذا يمكن أن تفعل أشعّة كونيّة أخرى لجثّته المتعفنة؟ من يعرف أيّ تحوّل وحشيّ آخر يمكن أن يبزغ من هذه الجثّة؟»

حين دخلت جولي إلى الغرفة وأخبرتني أنّ أمنا لن تنهض وأننا سنتناول الكعكة حول سريرها، كنت مستغرقاً جداً بحيث حدقت فيها دون فهم.

قالت جولي وهي تغادر: «لماذا لا تُسدي لها معروفاً وتنظّف نفسك ولو مرة واحدة؟!»

بعد الظهر، حمل توم وسو الكعكة والأكواب إلى الطابق

العلوي. أقفلتُ على نفسي باب الحمام ووقفت أمام المرآة. لم أكن من النوع الذي سيضعه القائد هنت على متن سفينته الفضائية. كنت أحاول أن أربّي لحيةً أُخفي بها بشرتي، لكن الشُعيرات المتناثرة كانت كلها تقود العين مثل إصبع مؤشّر إلى مساحة الجلد تحتها. ملأت حوض الغسيل بالماء الساخن، واتكأت براحتي كفيّ موازناً ثقلي على قاع المغسلة. كنت أحياناً أمضي نصف ساعة هكذا مائلاً باتجاه المرآة، بينما يداي ورسغاي في الماء السّاخن. هذه أقرب نقطة لي من الاغتسال. أسلمت نفسي لأحلام اليقظة، هذه المرة عن القائد هنت. حين بردت المياه جفّفت يدي وأخرجتُ من جيبي الحقيبة الجلدية الصغيرة. قصصت أظافري ومشّطت شعري البني الباهت مجرّبًا أساليب مختلفة ومقرّراً أخيراً أن أحتفل بعيد ميلادي صانعًا مفرقًا وسط شعري.

حين دخلت غرفة أمي، راحت سو تغني: «سنة حلوة يا جميل!» وانضمّ إليها الآخرون. كان قالب الكعكة موضوعًا على المنضدة جوار السرير، وشمعته مشتعلة. أمي تستلقي محاطة بالمخدات، ورغم أنها كانت تحرّك شفتيها مع الأغنية فإنني لم أستطع تمييز صوتها. حين انتهوا أطفأتُ الشّمعة ورقص توم أمام السرير وغنّى: «عمرك سنة واحدة، عمرك سنة واحدة!» إلى أن أسكتته جولي.

قالت أمي: «تبدو أنيقاً جداً. هل استحممت لتوك؟»

«نعم»، قلت، وقطعت الكعكة.

سكبَت سو في الأكواب عصير البرتقال الذي أعدّته، كما قالت، من أربعة أرطال من البرتقال الحقيقيّ.

«كل البرتقال حقيقيّ، أليس كذلك يا أمي؟»

ضحكنا جميعاً، بينما توم، الذي كان سعيداً بنفسه، كرّر تعليقه عدّة مرات لكن بنجاح متناقص. بالكاد كانت حفلة في الحقيقة. وكنت فاقد الصبر كي أعود إلى كتابي. أرادت جولي أن يحدث شيء ما، أرادتنا أن نتسلّى.

قالت لسو: «اروي لنا نكتة، تلك التي رويتِها لي البارحة.»

وحين روت سو نكتتها وضحكت أمنا قالت جولي لتوم: «أرنا عجلة العربة الخاصة بك.»

كان علينا أن نزيح الكراسي والصحون عن الطريق بحيث يستطيع توم أن يتحرّك على الأرض ويضحك. أوقفته جولي بعد وهلة ثم عادت إلي.

«لماذا لا تغني لنا أغنية؟»

قلت: «لا أعرف أية أغان.»

قالت: «نعم، تعرف. ماذا عن الأكمام الخضراء؟»

أغاظني عنوان الأغنية. قلت: «أتمنى أن تتوقفي عن الإملاء على الناس ما يجب أن يفعلوا. أنت لست الله، أليس كذلك؟»

تدخلت سو قائلةً: «افعلي شيئاً ما يا جولي.»

بينما كنت أتحدث أنا وجولي، خلع توم حذاءه وتسلق

إلى السرير إلى جانب أمنا. وضعت ذراعها حول كتفه وكانت تراقبنا كما لو أننا بعيدو المنال.

قلت لجولي: «نعم، افعلي شيئاً للتغيير.»

ودون أن تنبس بكلمة، اندفعت جولي إلى الفراغ الذي نُظِّف من أجل عجلات توم وفجأة انقلب جسدها رأساً على عقب، تدعمها يداها فحسب، مشدودة ونحيلة وهادئة بشكل تام. تنّورتها انهالت وغطّت وجهها. كان لباسها الداخلي التحتي أبيض ولامعاً إزاء بشرة ساقها الشاحبة السمراء، واستطعت أن أرى كيف نتأ القماش في طيآت صغيرة حول النسيج اللدن الذي تعلّق ببطنها المسطّح العضليّ. بضع شعرات سوداء بزغت من المنفرج الأبيض بين ساقيها. ساقاها اللتان كانتا معاً في البداية تحركتا الآن ببطء منفصلتين كذراعين عملاقين. ضمّت جولي ساقيها معاً مرة أخرى وأسقطتهما إلى الأرض ونهضت. وفي لحظة مربكة ووحشيّة وجدت نفسي على قدمي أغني «الأكمام الخضراء» بصوت مرتجف وعاطفي. حين انتهيت صفّقَ الجميع، وضغطت جولي على يدي. كانت أمنا تبتسم بنعس. نُظِّف كل شيء بسرعة، ورفعت جولي توم من السرير، ونقلت سو الصحون وبقايا قالب الكعكة، بينما نقلت أنا الكراسي.

الفصل الرابع

خلال ظهيرة يوم شديد الحرارة، عثرتُ على مطرقة ثقيلة مخبأة بين الحشائش والعُشب الباسق. كنت في فناء أحد المنازل المهجورة، أُنبّش هنا وهناك بدافع الضجر. كانت النار قد أتت على البناء منذ ستة أشهر. وقفتُ داخل غرفة الجلوس المسودة حيث انهار السقف واحترقت ألواح الأرضية. أحد الجدران اللوحيّة[7] ذات الدُّرَف بقي واقفًا، وفي مركزه فتحة خدمة متّصلة بالمطبخ. كان أحد أبوابه الخشبية الصغيرة ما يزال معلّقًا على مفصلاته. وفي المطبخ، تعلقتْ بالجدار أجزاء مكسورة من أنبوب مياه وتجهيزات كهربائيّة، وعلى الأرض مغسلة محطمة. وفي الغرف أعشاب طويلة تصارع من أجل الضّوء.

كانت معظم المنازل مكتظة بأشياء غير قابلة للنقل في أمكنتها الملائمة، وكل شيء يقول لك وظيفته وما تفعل به: هنا تأكل، وهنا تنام، وهنا تجلس. لكن في هذا المكان المحترق لم يكن هناك نظام، ذهب كل شيء. حاولت أن أتخيل سجادات، وخزانات ثياب، وصوراً وكراسي وآلة خياطة في تلك الغرف الفارغة المحطمة. وسُررت كيف ظهرت هذه الأشياء الآن سقيمة لا معنى لها. وكانت هناك مرتبة نوم في إحدى الغرف، منبعجة ما بين العوارض المحطمة. وكان الجدار مفتّتاً حول النافذة وقد تهاوى السّقف دون أن يصل إلى الأرض. وظننت أن الناس الذين كانوا ينامون على المرتبة

اعتقدوا فعلاً أنهم في 'غرفة نوم،' وسلّموا جدلاً أن الأمر سيكون دوماً هكذا. وفكرت بغرفة نومنا، وغرفة نوم جولي، وغرفة نوم أمي، وكل الغرف التي ستنهار في أحد الأيام. كنت أفكّر في ذلك بينما أتسلق المرتبة متوازنًا على حافة جدار منهار، حين رأيت قبضة المطرقة بين الأعشاب. قفزت وأمسكت بها. كان يعيش في خشبها تحت الرأس الحديدي الكبير قملٌ رماديّ اللون وقد بدأ يركض الآن إلى الأمام والخلف في تشوّش أعمى عبر بقعة التراب الصغيرة. قذفت المطرقة على القمل، وشعرت بالأرض تهتز تحت قدمي. كانت لُقية جيّدة. ربما تركها رجال الإطفاء أو فريق الهدم. وازنتها على كتفي وحملتها إلى المنزل متسائلاً ما الذي أستطيع أن أحطمه بها ويكون في ذلك فائدة. في الحديقة كانت البقع المحاطة بالصّخور تتفكك وتنمو خلالها الأعشاب. ليس هناك شيء أهوي عليه بالمطرقة باستثناء أحجار الرصف، وكانت متشقّقة سلفًا. قررت أن أهوي بها على الممر الإسمنتي الذي بطول خمس عشرة قدماً وسماكة إنشين والذي لم يكن له أيّ نفع. تعرّيت إلى الخصر وانطلقت. تفتت قليل من الإسمنت في الضربة الأولى، لكن الضربات التالية القليلة لم تُحدث شيئاً، ولا حتى شقاً. استرحت، ثم بدأت ثانية. في هذه المرة، وبشكل مفاجئ، انفتح شق كبير وخرجت قطعة كبيرة مُرْضية من الإسمنت بلغ طولها القدمين، ووزنها ثقيل. سحبتها كلّها وأسندتها إلى

السياج. كنت على وشك أن ألتقط المطرقة ثانية حين سمعت صوت جولي خلفي.

«توقّفْ عن فعل هذا!»

كانت ترتدي ثياب سباحة من قطعتين خضراوين لامعتين[8]، وتحمل في إحدى يديها مجلة، وفي الأخرى نظّارة شمسيّة. في هذا الطرف من المنزل كنا في ظلٍّ عميق. أسندتُ رأس المطرقة إلى الأرض بين قدميّ، واستندت على المقبض.

قلت: «عن ماذا تتحدثين؟ ولماذا لا؟»

«هذا ما قالته أمي».

التقطت المطرقة وقذفتها على الممر بقدر ما أستطيع من قوّة. ثمّ التفت برأسي نحوها، ومن فوق كتفي نظرت إليها، شقيقتي، وقد هزّت كتفيها بينما تسير مبتعدة.

«لماذا؟» ناديتها.

قالت جولي دون أن تلتفت: «إنها لا تشعر بالارتياح. تعاني من صداع.»

أطلقتُ بعض الشتائم وأسندت المطرقة إلى الجدار.

قَبِلْتُ دون تساؤل حقيقة أنها نادراً ما تقوم عن سريرها. صارت طريحة الفراش بحيث توقفنا بالتدريج عن التعليق على الأمر. ومنذ عيد ميلادي، قبل أسبوعين، لم تنهض مطلقاً. تكيّفنا جيداً بما يكفي. وصرنا نأخذ الصينية إلى الطابق العلوي حسب دورنا، وكانت جولي تشتري الأغراض في طريق عودتها من المدرسة، بينما

سو تساعدها في الطبخ، وأنا أجلي الصحون. كانت أمنا تستلقي محاطة بالمجلات وكتب المكتبة، لكنني لم أرها تقرأها قط. وفي معظم الأوقات تغفو في وضعيّة الجلوس، وحين أدخل تستيقظ بإجفال خفيف وتقول شيئاً ما مثل: «آه، لا بد أنني غفوت لحظة».

ولأنه لم يأتنا أيّ زوّار، فلم يسألنا أحد ما علّتها، وهكذا فإنني لم أطرح السؤال على نفسي بشكل واضح. وتبيّن أن جولي تعرف أكثر بكثير ممّا ظننت. وكانت في صباح أيّام السّبت تأخذ الوصفة الطبيّة للتجديد وتعود بالزجاجة البنية مليئة مرة أخرى. لم يأت أطباء لزيارة أمي. «رأيت من الأطباء الكثير، وأجريت من الفحوصات الطبيّة ما يكفيني بقيّة حياتي.» وبدا لي التعب من الأطباء منطقياً.

صارت غرفة نومها مركز البيت. كنا نجتمع هناك، نتحدث مع بعضنا أو نصغي إلى المذياع الخاص بها، بينما هي تنام. سمعتها أحياناً تذكر لجولي إرشادات حول التسوّق أو ملابس توم، ودوماً بصوت سريع ومنخفض. «حين تنهض أمنا» صار زمناً غامضاً غير منشود في المستقبل القريب، حين سيعاد بعث النماذج السّابقة لحياتنا معًا. بدت جولي جديّة وفعّالة، لكنني اشتبهت بأنها تستغل الموقف، وأنها تستمتع بإصدار الأوامر لي. «حان الوقت كي تنظف غرفتك»، قالت لي في أحد عطل نهاية الأسبوع.

«ماذا تعنين؟»

«تعمّها الفوضى، وتفوح منها رائحة شيء ما». لم أقل شيئاً. واصلت جولي: «من الأفضل أن تنظفها. هذا ما قالته أمنا».

ولأن أمنا مريضة، اعتقدتُ أنني يجب أن أفعل ما طلبته. وبينما لم أفعل أي شيء لغرفتي فكرت بها، وقلقت من تنظيفها. لم تذكر أمنا غرفتي لي قط، ورحت أعتقد أنها لم تقل أي شيء أبدًا لجولي.

بعد أن حدقتُ في مطرقتي دقيقة أو اثنتين، سرتُ إلى الفناء الخلفي. كُنّا في منتصف تمّوز، ولم يتبق سوى أسبوع واحد على بداية العطلة الصيفيّة، وقد عشنا قبل ذلك أجواء شديدة الحرارة يوميًّا مُدّة ستة أسابيع، ومن الصعب تخيّل سقوط المطر ثانية. وكانت جولي متلهفة كي تهب بشرتها بعض السُّمرة، فنظّفت مساحة منبسطة صغيرة في البقعة المحاطة بالصخور. كانت تفرش هناك كل يوم منشفة حمّامها ساعةً بعد المدرسة، وتستلقي بينما يداها وأصابعها منبسطة على الأرض على جانبيها، وبعد كل عشرة دقائق أو ما يقاربها تنقلب على بطنها بينما تحلّ بإبهاميها ربطات حمّالة صدرها. أحبّت أن توازن لون بشرتها، والذي صار أكثر دكنة، بارتداء بلوزة مدرسيّة بيضاء. كانت قد استلقت ثانية لتوّها حين جئت دائراً حول زاوية المنزل. استلقت على بطنها وأسندت رأسها على معصميها وأدارت وجهها بعيداً عنّي، نحو أرض خراب في الجوار، حيث عناقيد كبيرة من النّباتات الشوكيّة تموت من الظمأ. وإلى جانبها، بين

نظارتها الشمسية وأنبوب سميك من مرهم تسمير البشرة، يوجد مذياع صغير فضّيٌ أسود، صدر منه صوت خفيف خشن لأصوات ذكوريّة. كانت جوانب البقعة المحاطة بالصخور تنحدر بحدّة بعيداً عن المكان الذي تستلقي فيه. لو تحرّكت قليلًا إلى اليسار لتدحرجت نحو قدمي. الشجيرات والأعشاب ذابلة، وقطعتَي ملابس السّباحة خاصّتها، المتألّقة واللامعة، هو كل ما هو أخضر في أرجاء البقعة الوعرة.

«اسمعي» قلت لها بصوت أعلى من أصوات المذياع.

لم تلتفت نحوي، لكنني عرفت أنها سمعتني.

«متى طلبَت مني أمنا أن أتوقف عن إصدار الضجيج؟»

لم تتحرّك جولي أو تتكلّم. وهكذا درت حول البقعة الوعرة كي أرى وجهها. كانت عيناها مفتوحتين.

«أعني، كنت هنا طيلة الوقت».

لكن جولي قالت: «أسْدِ لي معروفاً من فضلك وادهن لي ظهري بالمرهم.»

حين صعدتُ، ضربت قدمي صخرة فاندفعت متدحرجة إلى الأرض.

«انتبه»، قالت جولي.

ركعتُ بين ساقيها المفتوحتين وعصرت من الأنبوب سائلاً شاحباً قشدياً في راحة كفي.

قالت جولي: «في أعلى كتفي وعنقي، هذه هي البُقَع التي تحتاجه أكثر»، أنزلت رأسها ورفعت شعرها عن قفا عنقها.

رغم أننا كنا على ارتفاع خمس أقدام فقط عن الأرض، فإنني شعرت بنسيم خفيف ومنعش. وفيما كنت أدهن كتفيها لاحظت كم بدت يداي شاحبتين ومتسختين على عنقها. ربطات حمّالة صدرها محلولة عن كتفيها ومرمية على الأرض. لو تحركت قليلاً إلى أحد الجانبين لكان بوسعي أن أرى ثدييها وقد أخفاهما ظل جسدها الداكن. وحين انتهيت نادت من فوق كتفها. «الآن ادهن ساقيَّ».

في هذه المرة دهنتها بأقصى ما أستطيع من سرعة، وعيناي نصف مغمضتين. استند رأس جولي مرة أخرى إلى معصمها وصار تنفّسها بطيئاً ومنتظماً، كشخص نائم. وصدر من المذياع صوت مرتفع مُعلنًا نتائج سباق الخيول برتابة ماكرة. وحالما انتهيت من ساقيها بشكل ملائم قفزت عن البقعة المحاطة بالصخور.

«شكراً»، قالت جولي بنعس.

أسرعت إلى داخل المنزل وصعدت إلى الأعلى نحو الحمام. فيما بعد، في ذلك المساء، رميت المطرقة في القبو.

كل ثلاث صباحات يحين دوري كي أرافق توم سيرًا إلى مدرسته. وكانت مهمة اصطحابه شاقةً دوماً، فهو يصرخ ويرفس أحياناً، ولهذا لابدّ من حمْله إلى خارج المنزل. وفي صباح أحد الأيام، وقبل وقت قصير من نهاية الفصل الدراسيّ، قال لي بهدوء تام ونحن نمشي أن له «عدوًّا» في المدرسة. بدت الكلمة غريبة على

شفتيه، وسألته ما الذي يعنيه. قال إن هناك ولداً أكبر منه في السن يضايقه حين يخرج من المدرسة.

«سيسحق رأسي»، قال بنبرة قريبة من الضياع.

لم أتفاجأ. كان توم من النوع الذي يتم اختياره لهكذا أمور. فقد كان صغيراً بالنسبة لشخص عمره ست سنوات، وضعيفاً. وكان شاحباً، أذناه ناتئتان قليلاً، وابتسامته بلهاء وشعره أسود ينمو بغزارة لكنّه غير متوازن الكثافة على جانبي رأسه. والأسوأ من ذلك كلّه أنه ذكيّ بطريقة تافهة مُؤلعة بالجدل، لذا كان الضحية الملائمة في الملعب.

قلت مقوّماً ظهري المنحني: «قل لي من هو وسأسوّي الأمور معه.»

وقفنا خارج المدرسة وحدّقنا من خلال قضبان السّور الأسود.

«ذاك هو»، قال أخيراً وقد أشار باتجاه ظِلال كوخ خشبيّ. كان ولداً بدا لي هزيلاً، أكبر من توم بعامين، وأحمر الشعر ومنمّش، النوع الأكثر حقارة، كما ظننت. عبرت الملعب بسرعة خاطفة وأمسكت به من طيّة صدر سترته بيدي اليمنى، وبالأخرى قبضت على عنقه وخبطته بقوة على جدار الكوخ وثبته هناك. ارتجف وجهه وبدا كأنه ينتفخ. أردت أن أضحك بصوت مرتفع، وكان ابتهاجي بنفسي في غاية الوحشيّة.

قلت: «إذا وضعت إصبعك على أخي سأبتر ساقيك.» ثم أفلتّه.

كانت سو هي التي أحضرت توم من المدرسة في نهار ذلك اليوم. كان قميصه يتدلّى في مِزَق من ظهره، وفقد فردة حذائه. أحد جانبي وجهه منتفخ وأحمر، وزاوية من فمه ممزّقة. ركبتاه مخدوشتان، والدم الجاف يجري في خطوط على مقدّمة ساقه. وكانت يده اليسرى منتفخة ومحمرّة كما لو أنّه دِيْسَ عليها. حالما دخل المنزل راح يطلق أنيناً حيوانيًّا غريباً وصل إلى أعلى الدرج.

صاحت جولي: «لا تدع أمنا تراه هكذا».

تجمعنا عليه كقطيع من الكلاب على أرنب مجروح، وحملناه إلى الحمام الذي في الطابق الأرضي وأغلقنا الباب. لم يتسع المكان جيداً لأربعتنا. وخلال الصوت الأجوف للمكان، كانت صيحات توم كتيمة. ضغطنا عليه أنا وجولي وسو وقبلناه وداعبناه ونحن نعزّيه، كانت سو تبكي إلى حدٍّ ما.

«آه يا توم». واصلت القول مرة بعد أخرى. «توم المسكين». وبالرغم من كل هذا الذي يحدث، كنت ما أزال أشعر بالحسد من أخي العاري. جلسَت جولي على حافة الحمام ووقف توم بين ساقيها، يتّكئ عليها بينما تضع القطن على وجهه. يدها الحُرّة ثبّتته، راحة اليد مسطحة على بطنه، تماماً فوق أربيته[9]. كانت تضع منشفة باردة على يده المكدومة.

قلت: «هل كان ذاك الفتى أحمر الشّعر؟»

بكى توم: «كلّا، بل صاحبه.»

حالما انتهينا من تنظيفه لم يبدُ أنّه تعرّض للأذى بشكل سيء، وتلاشى الإحساس بالدراما. كسته جولي بمنشفة حمّام وحملته إلى الطابق العلوي. ذهبتُ أنا وسو مباشرة كي نجهّز أمنا. لا بد أنها سمعت شيئاً ما لأنها كانت خارج السرير في ثياب نومها، مستعدّة للنزول.

قلنا لها: «مجرّد شجار في المدرسة، لكنه في حال جيدة الآن.»

عادت إلى السرير ووضعت جولي توم إلى جانبها. فيما بعد، حين كنا نجلس حول السرير نتحدث عما حصل ونشرب الشاي، نام توم وهو في منشفة الحمام.

جلسنا في الطابق الأرضي في مساء أحد الأيام بعد العشاء. كان كل من توم وأمنا نائمين. أرسلتْ أمّنا جولي إلى مدرسة رفقة توم في ذلك اليوم كي يتحدث مع معلّمه عن الشجار، وكنا نتحدث عن هذا. قالت سو لي ولجولي إنها أجرت المحادثة الأغرب مع توم. انتظرت سو أحدنا كي يحثّها على مواصلة الكلام.

«ما الذي قاله إذاً؟» قلت بإجهاد بعد أن مرّت نصف دقيقة. ضحكَت.

«طلب مني ألا أخبر أحداً».

«من الأفضل ألّا تخبري أحداً إذاً»، قالت جولي، لكن سو واصلت: «جاء إلى غرفتي وسألني: كيف هو الأمر أن تكوني فتاة؟ فقلت له: سؤال ظريف، لماذا؟ فقال إنه متعب من كونه ولداً ويريد أن يصبح فتاة الآن. لكنني قلت له: أنت لا تستطيع أن تصبح فتاة إذا كنت صبيًا.

فقال: نعم، أستطيع، إذا أردتُ أستطيع. فقلت: لماذا تريد أن تكون فتاة؟ فقال: لأنك لا تُضربين إذا كنت فتاة. فقلتُ له بل تُضرب أحياناً. لكنه قال: كلا لا تُضربين، لا تُضْرَبين. ثم سألته: كيف تستطيع أن تكون فتاة حين يعرف الجميع أنك صبي؟ فقال: سألبس فستاناً وأجعل شعري يبدو كشعرك وأدخل المدرسة من بوّابة الفتيات. فقلت له إنه لا يستطيع فعل ذلك. فقال نعم يستطيع، وإنه يريد ذلك، يريد...»

كانت سو وجولي تضحكان كثيراً الآن بحيث لم يكن ممكناً بالنسبة لسو أن تواصل قصتها. لم أبتسم حتى. كنت منذهلًا ومُستثارًا أيضًا.

قالت جولي: «المسكين. يجب أن ندعه يصبح فتاة إذا أراد ذلك.»

كانت مسرورة. صفّقت بيديها معاً. «سيبدو جميلاً في أحد فساتيني. ذلك الوجه العذب الصغير.»

نظرتا إلى بعضهما وضحكتا. كانت هناك إثارة غريبة في الجو.

قلت فجأة: «سيبدو معتوهاً».

قالت جولي بظرافة: «ماذا تقول؟ لماذا تظن ذلك؟»

«تعرفين أنه سيبدو كذلك...» ثم مرّ صمتٌ كانت جولي خلاله تُراكم غضبها. ذراعاها العاريان على الطاولة، سُمرتهما بدت غامقة أكثر تحت الضوء الكهربائي.

«ذاك يجعله يبدو غبياً ومثيراً للسخرية»، قلتُ، بينما كنت أشعر بأنني يجب أن أصمت.

أجابتني جولي بهدوء: «هل تظن أن الفتيات يبدين بلهاوات وسخيفات وغبيات؟»

«كلا»، قلت شاعراً بالاستياء.

«تظن أنه من المذل أن يبدو المرء كفتاة لأنك تظن أنه من المذل أن يكون المرء فتاة!»

«سيكون مذلاً بالنسبة لتوم أن يبدو كفتاة.»

أخذت جولي نفساً عميقاً وتحوّل صوتها إلى تمتمة. «الفتيات يستطعن ارتداء الجينز وتقصير شعرهن ولبس القمصان والأحذية طويلة الرّقبة، لأنه لا بأس أن يكون المرء فتاة، فبالنسبة للفتيات تلك المسألة هي أشبه بالترقّي. لكن أن يبدو فتىً كفتاة فهذا انحطاط، كما تقول، لأنك تعتقد ضمنياً أن كونك فتاة يُنقص من قدرك. وإلا لماذا ستعتقد أن ارتداء توم للفستان مذل؟»

قلت مصمماً: «لأنه مذل».

«لكن لماذا؟» قالت سو وجولي معاً، وقبل أن أستطيع التفكير بأي شيء قالت جولي: «لو لبستُ بنطالك إلى المدرسة غداً وأنت لبست تنورتي، سنرى في الحال من الذي سيمر بوقت عصيب أكثر. سيشير الجميع إليك ضاحكين». هنا أشارت جولي عبر الطاولة، وأصابعها تبعد إنشات عن أنفي.

«انظري إليه! يبدو مثل... آه، فتاة!»

«وانظروا إليها» كانت سو تشير إلى جولي «تبدو أكثر رشاقة في ذلك البنطال!» ضحكت شقيقتاي بقوة حتى انهارت كل منهما بين ذراعي الأخرى.

كان نقاشاً نظرياً بحتاً، ذلك أنه في أحد الأيام عاد توم من المدرسة وكتب أستاذه لأمي رسالة طويلة. قرأتُ أجزاء منها بصوت مرتفع بينما كنت أنا وسو نحاول إدخال طاولة غرفة العشاء إلى غرفة نومها.

«من الممتع وجود توم في الصف»، قرأت أمي هذا السطر مرتين برضا كبير. أحبت أيضاً: «إنه طفل لطيف لكنه مفرط الحيوية». قررنا أن نتناول وجباتنا في غرفة النوم مع أمنا. حملتُ إلى الأعلى أيضًا كرسيين مُذرّعين، فلم يعد هناك من مجال للحركة حول السرير. أنهكتها قراءة الرسالة. استلقت على وسائدها حاملة نظّارتها بارتخاء في إحدى يديها. انزلقت الرسالة إلى الأرض. التقطتها سو ودفعتها داخل الظرف.

قالت أمنا لها: «حين أستيقظ سنضع بعض الزخارف في غرفة في الطابق الأرضي قبل أن نعيد كل هذا الأثاث إليها.»

جلست سو على سرير أمّنا وشرعتا تتحدثان عن ألوان الزّخارف المُزمع انتقاؤها. أمّا أنا فجلست إلى الطاولة، متكئاً على كوعيَّ. كان النهار في آخره والجو ما زال حاراً جداً. وكانت دُرَف نافذتي غرفة النوم مشرعة إلى أقصاها. ومن الخارج أتت أصوات صِبْيَة يلعبون حول البيوت الفارغة في نهاية الشارع، صيحات مفاجئة فوق تمتمة الأصوات، نودي اسم أحد ما. كان هناك كثير من الذباب في الغرفة. راقبتُ ذبابة تزحف على طول ذراعي. كانت جولي تتشمس في الفسحة المحاطة

بالصخور بينما توم يلعب في مكان ما في الخارج.
نامت أمنا. أخذت سو النظارة من يدها، فطوتها ووضعتها على المنضدة، ثم غادرت الغرفة. أصغيتُ لارتفاع صوت أنفاس أمي وانخفاضها. فقد سبّب توضّع معيّن للمخاط في أنفها صوتاً ضعيفاً عالي النبرة كشفرة حادة في الجو، ثم تلاشى هذا. كان وضع طاولة العشاء في الأعلى شيئاً ما يزال يمثل بعضَ الجِدّة بالنسبة لي، ذلك أنني لم أستطع تركها تماماً. ورأيت للمرة الأولى الخطوط السوداء الحائمة للسَطح الخشبي تحت دهان الورنيش. أرَحتُ ذراعيَّ العاريين على سطحها البارد. بدت مناسبة أكثر هنا، ولم يعد بوسعي تخيلها في الأسفل. من سريرها، أصدرت أمي صوت تلمُّظٍ قصيراً وناعماً بلسانها على أسنانها، كما لو أنها تحلم بأنها ظامئة. أخيراً ذهبتُ ووقفت قرب النافذة متثائباً بشكل متكرر. لدي واجب مدرسيّ يجب أن أكتبه، لكن بما أن عطلة الصيف الطويلة ستبدأ، فلم يعد يهمني الأمر. لم أكن حتى متأكداً من أني كنت أريد العودة إلى المدرسة في الخريف التالي، لكن لم تكن لدي خطط لفعل أي شيء آخر. في الخارج، كان توم وولد آخر بحجمه يجُرّان إطار شاحنة كبيراً في الشارع إلى أن غابا عن البصر. إن حقيقة أنهما كانا يجرانه ولا يدحرجانه جعلتني أشعر بسأم كبير.
كنت على وشك الجلوس إلى الطاولة ثانية حين نادت أمي اسمي وذهبت كي أجلس على سريرها. ابتسمت

ولمست رسغي. حركت يدي بين ركبتيَّ. لم أرد أن أُلمس، كان الجو حاراً جداً.

سألتني: «ما الذي تفعله؟»

«لا شيء» قلت لها من خلال تنهيدة.

«ضجر؟» هززت رأسي. حاولت أن تدلكني بيدها لكنني كنت أجلس بعيداً عن مدى يدها.

«يجب أن تعثر على عمل خلال الإجازات، وتكسب لنفسك بعض مصروف الجيب». نخرت بشكل غامض وأدرت وجهي لحظةً نحوها. كانت عيناها، كما دوماً، غائصتين عميقاً، وكان الجلد حول عينيها أسود ومتغضناً وكأنّه امتدادٌ للعين نفسها. كان شعرها أكثر رقة وشَيْباً، وبضعة خيوط منه عالقة على الغطاء. كانت تلبس سترة صوف محبوك، قرنفلية ضاربة إلى اللون الرماديّ، وقد انتفخ كُمّاها عند الرسغ لأنها تُبقي منديلها محشورًا هناك.

قالت: «اقترب أكثر يا جاك. هناك شيء أريد أن أقوله لك ولا أريد أن يسمعه الآخرون». تقدمت إلى أعلى السرير ووضعت يدها على معصمي.

مرت دقيقة أو اثنتان لم تتحدث فيهما. انتظرتُ ضَجِرًا قليلاً، ومشتبهًا بأنها أرادت أن تتحدث معي عن مظهري أو دمي المبدّد هباءً. إذا كان هذا هو الموضوع فسأستعد للسير بعيداً عن السرير وخارج الغرفة. أخيراً قالت: «يمكن أن أرحل في الحال.»

قلت على الفور: «إلى أين؟»

«إلى المستشفى كي أمنحهم فرصة كي يعرفوا حقيقة مرضي.»

«كم ستبقين هناك؟» توقفت، وانتقلت عيناها من عيني وحدقت فوق كتفي.

«يمكن أن يكون وقتاً طويلاً. لهذا أريد أن أتحدث معك». كان اهتمامي أكبر بمُدّة الوقت الذي كانت تعنيه، فقد انتابني شعور بالحريّة شدّ اهتمامي. لكنها قالت: «إن هذا يعني، في الحقيقة، أنك وجولي يجب أن تتوليا المسؤولية».

«تعنين أن جولي ستتولاها». شعرت بالانزعاج.

قالت بحزم: «كلاكما. ليس عدلاً ترك الأمور كلها لها».

قلت: «أخبريها إذاً أنني مسؤول أيضاً».

«لابدّ أن يدار المنزل كما يجب يا جاك، ولابدّ أن يُعتنى بأخيك توم. يجب أن تُبقوا الأشياء نظيفة ومرتبة، وإلّا تعرفون ما سيحدث».

«ماذا؟»

«سيأتون ويضعون توم في الرعاية، وربما أنت وسوزان أيضاً. وجولي لن تمكث هنا وحدها عندئذ. وهكذا فإن المنزل سيغدو شاغرًا. ثم سينتشر الخبر. ولن يمضي وقت طويل حتى يقتحمه الناس. سيأخذون متعلّقاتنا ويحطمون أشياءنا.» ثم ضغطت على ذراعي وابتسمت «عندها، حين أخرج من المستشفى، لن نجد شيئًا لنا كي نعود إليه.» هززت رأسي. «لقد فتحتُ حساباً في مركز البريد لجولي، وستُودع النقود فيه من مدّخراتي. هناك

ما يكفي لكم جميعاً فترةً لا بأس بها، إلى أن أخرج من المستشفى.» استندَتْ إلى الخلف، على المخدات، وأغمضت عينيها نصفَ إغماضة. نهضتُ.

«حسناً،» قلت لها «متى تدخلين المستشفى؟»

«ليس قبل أسبوع من الآن، أو حتى أسبوعين»، قالت دون أن تفتح عينيها. حين وصلتُ إلى الباب قالت: «كلما اقترب الموعد كان ذلك أفضل.»

«حسنٌ».

جعلها الموقع المختلف الذي يأتي منه صوتي تفتح عينيها. وقفتُ عند الباب، مستعدًّا للمغادرة. قالت: «تعبتُ من الاستلقاء هنا لا أفعل شيئًا طيلة اليوم».

توفيتْ بعد ثلاثة أيام. وجدتْها جولي ميتة حين عادت من المدرسة بعد ظهر الأحد، اليوم الأخير من فصل الصيف. كانت سو قد أخذت توم إلى السباحة، أمّا أنا فوصلت بعد دقائق من جولي. حين درتُ إلى مدخلنا الأمامي شاهدتها تستند من نافذة أمنا وشاهدتني، لكننا تجاهلنا بعضنا. لم أصعد إلى الأعلى على الفور. نزعتُ سترتي وحذائي وشربت كأساً من الماء البارد من صنبور المطبخ. بحثت في الثلاجة عن شيء آكله، عثرت على بعض الجبنة وأكلتها مع تفاحة. كان المنزل هادئاً جداً وشعرت بإرهاق الأسابيع القادمة. لم أعثر على عمل بعد، ولم أبحث عن واحد. وكالعادة، صعدت إلى الطابق العلوي كي أسلّم على أمنا، فرأيت جولي خارج غرفة أمي. وحين رأتني أغلقَت الباب وانحنت كي تُقفله.

مرتجفة قليلاً، وقفَت مواجهة لي، وشدّت المفتاح في قبضتها بإحكام.

قالت جولي بهدوء: «لقد ماتت».

«ما الذي تعنينه؟ كيف تعرفين؟»

«كانت تحتضر لشهور». عبرتني جولي على الدرج. «لم تُرِد لكم أنتم أن تعرفوا ذلك.» استأثُ مِن 'أنتم' على الفور.

قلت: «أريد أن أرى، أعطني المفتاح.» هزّت جولي رأسها.

«من الأفضل أن تنزل لنتحدث قبل أن يأتي توم وسو».

فكرت بنشل المفتاح من يدها لحظة، لكنني استدرت، وبطيش قريب من الضحك الذي يخلو من الاحترام، تبعت أختي إلى الأسفل.

Partition wall (7)

Bikini (8)

(9) المنطقة على جانبي جسم الإنسان بين البطن والفخذ، وعلى جانبي منطقة العانة.

الفصل الخامس

حين وصلتُ إلى المطبخ، كانت جولي قد استعدّت. ربطت شعرها على شكل ذيل الفرس، وكانت تستند إلى الخلف على المغسلة طاوية ذراعيها. وزْنها كلّه على قدم واحدة، فيما استقرت الأخرى منبسطة على خزانة خلفها بحيث نتأت ركبتها.

«أين كنت؟» قالت، لكنني لم أفهمها.

«أريد أن أرى. كلانا مسؤول الآن» قلت ذلك بينما أدور حول طاولة المطبخ «هذا ما قالته لي أمي.»

قالت جولي: «إنها ميتة الآن. اجلس. ألم تفهم بعد؟ إنها ميتة!» جلستُ.

قلتُ: «أنا مسؤول أيضاً»، وبدأتُ أبكي لأنني شعرت بأنني خُدعت. رحلتْ أمي دون أن تشرح لجولي ما قالته لي، ليس إلى المستشفى، بل رحلت إلى الأبد ولن يكون هناك ما يثبت هذه الحقيقة. أدركت خلال لحظة حقيقةَ موتها، فصار بكائي جافًّا وقاسياً. لكنني عندئذ تصوّرت نفسي أحداً ما ماتت أمه لتوها فانهمرت دموعي بسهولة مرة ثانية. كانت يد جولي على كتفي. حالما صرت واعياً لها رأيت، كما لو من خلال نافذة المطبخ، الصورة الثابتة التي شكّلناها، الجالس والواقف، وكنت غير متأكد، بعض الوقت، مَن كان أنا منهما. جلس أحد ما تحتي يبكي عند طرف أصابعي. كنت غير متيقن إن كانت جولي تنتظرني برقّة أو بفارغ صبر كي أتوقف عن البكاء. لم أعرف إن كانت تفكّر بي لأنني

شعرت أن لمسة اليد التي على كتفي حياديّة. جعلني هذا اليقين أتوقف عن البكاء. تمنّيت أن أرى التعبير على وجهها. ظلّت جولي في موقعها قرب المغسلة وقالت: «سو وتوم قادمان إلى هنا.» مسحتُ وجهي ونثرتُ أنفي في منديلٍ من مناديل المطبخ. «يمكن أن نخبرهما حالما يدخلان.» هززت رأسي ووقفنا منتظرين في صمت نصفَ ساعة تقريباً.

حين دخلت سو وأخبرتْها جولي بما حدث انفجرت الفتاتان بالبكاء وتعانقتا. كان توم ما يزال في الخارج في مكانٍ ما. راقبتُ شقيقتيَّ تبكيان، وأحسست أن الأمر سيبدو عدوانياً لو نظرت إلى مكان آخر. وشعرت أنني مُستبعد، لكنني لم أرغب أن أبدو كذلك. وفي لحظةٍ ما وضعت يدي على كتف سو، بالطريقة التي وضعتْ بها جولي يدها على كتفي، لكنهما لم تلاحظا ذلك، كما قد يفعل مصارعان مشتبكان في حركة تثبيت. فأزحتها. ومن خلال بكائهما كانت جولي وسو تقولان أشياء غير مفهومة، ربما لأنفسهما أو واحدتهما للأخرى. وتمنيت لو أستطيع تركَ نفسي على سجيتها، لكنني شعرت أنني مراقب. أردت أن أذهب وأنظر إلى نفسي في المرآة. حين جاء توم انفصلت الفتاتان وأدارتا وجهيهما. طلبَ كأساً من العصير المركّز[10]، شربه وغادر. تبعت أنا وسو جولي إلى الأعلى، وبينما كنا نقف خلفها في الفسحة أعلى الدرج منتظرين كي تفتح الباب، فكرتُ بسو وبنفسي كزوجين يتم إدخالهما إلى

غرفة فندق. تجشّأت، ضحكتْ سو وأصدرت جولي صوتَ حفيف.

لم تكن الستائر مسدلة. قالت لي جولي فيما بعد إن ذاك من أجل «تجنُّب الشُّبهة.» وكانت الغرفة مغمورة بضوء الشّمس وأمنا تستلقي مُدعّمة بالوسائد، بينما يداها تحت الغطاء. ربما كانت نائمة، ذلك أن عينيها لم تكونا مفتوحتين وتحدقان، كالموتى في الأفلام، ولم تكونا مغمضتين بشكل كامل. وعلى الأرض قرب السرير كانت مجلاتها وكتبها، وعلى منضدة السّرير هناك منبه ما يزال يتكتك، وكأس ماء وبرتقالة. وبينما كنت أنا وسو نراقب من عند قدم السرير أمسكت جولي الغطاء وحاولت أن تسحبه فوق رأس أمنا. ولأنها كانت جالسة، لم يمتد الغطاء إلى رأسها. فسحبته جولي بشدة حتى أفلت، فتمكّنت من تغطية الرأس. لكن ظهرت قدما أمي، نتأتا من تحت الغطاء بلون أبيض ضارب إلى الزرقة، وفراغات بين أصابعها. ضحكت أنا وسو ثانية. وسحبت جولي الغطاء فوق القدمين فانكشف رأس أمي مرة أخرى كرأس تمثال. ضحكت أنا وسو بطريقة لا تمكن السيطرة عليها. ضحكت جولي أيضًا عبر أسنان مُطبقة، وارتجف جسمها كله. وضعت أغطية السّرير أخيرًا في مكانها وجاءت جولي ووقفت بجانبنا عند قدم السرير. كان شكل رأس أمنا وكتفيها واضحاً عبر الغطاء الأبيض.

أعولت سو: «تبدو سخيفة هكذا.»

«كلا، لا تبدو كذلك»، قالت جولي بحدّة. مدت سو يدها

ونزعت الغطاء عن رأس أمنا، وفي الوقت نفسه تقريباً قرصتها جولي بشدة من ذراعها وصاحت: «اتركيه مكانه.» انفتح الباب الذي خلفنا ودخل توم إلى الغرفة لاهثاً من كثرة لعبه في الشارع.

حالما أمسكت به أنا وجولي قال: «أريد أمي.»

همست: «إنها نائمة. انظر، تستطيع أن ترى.» صارع توم كي يفلت منا.

«إنها مستغرقة في النوم»، قالت سو. مرّت لحظةٌ بدا فيه لنا أنه من خلال النوم، النوم العميق جداً، يمكن أن نشرح لتوم مفهوم الموت. لكننا لم نكن نعرف عن الأمر أكثر مما يعرف! فأحسَ أن هناك خطباً ما.

«ماما!» صاح وحاول أن يشق طريقه بقوّة حول السرير. أمسكته من رسغيه.

قلت: «لا تستطيع.» رفس كاحلي، وحرّر نفسه ليدور بعدها حول جولي نحو رأس السرير. موازناً نفسه بيد واحدة على كتف أمنا، خلع توم حذاءه وحدّق إلينا بانتصار. لقد حدثت مشاهد كهذه من قبل، كان يتمكن من شق طريقه أحياناً. أؤيّد الآن أن نتركه ليكتشف بنفسه. أردت فقط أن أراقب ما يحدث. لكن ما إن سحب توم الأغطية كي يتسلق إلى جانب أمنا حتى قفزت جولي وأمسكت توم من ذراعه.

«هيا»، قالت بلطف، وسحبته.

«كلا، كلا...» صرخ توم، كما يفعل دوماً، وبيده الحُرّة أمسك بكم رداء نوم أمنا. وفيما كانت جولي تشدّه،

انقلبت أمنا على جنبها بشكل مخيف، وارتطم رأسها بالمنضدة وسقط المنبه وكأس الماء على الأرض. بقي رأسها ثابتًا بين السّرير والطاولة. وباتت إحدى يديها ظاهرةً قُرب المخدة. صار توم هادئاً وثابتاً، وتقريباً جامداً، وترك نفسه يُقاد بعيداً كأعمى من قِبَل جولي. كانت سو قد غادرت لكنني لم أشاهدها تغادر. توقفتُ لحظةً متسائلًا فيما إذا كان يجب أن أدفع الجثة إلى الوضعية المنتصبة. خطوت خطوة نحوها لكنني لم أستطع تحمل فكرة لمسها. ركضت خارجاً من الغرفة، أغلقت الباب، أدرت المفتاح ووضعته في جيبي.

في بداية المساء بكى توم إلى أن نام على الأريكة في الأسفل. غطيناه بمنشفة الحمام لأنه لا أحد أراد أن يصعد وحده كي يُحضر له لحافًا. وقضينا بقيّة المساء جالسين في غرفة الجلوس دون أن نقول الكثير. وبدأت سو بالبكاء مرة أو مرتين ثم استسلمت كما لو أن الجهد كان كثيراً جداً عليها. قالت جولي: «ربما ماتت وهي نائمة»، وهززت رأسي أنا وسو.

بعد دقيقتين أضافت سو: «لم يؤلمها ذلك.» تمتمت أنا وجولي موافقين.

بعد وقفة طويلة قلت ثانية: «هل أنتما جائعتان؟» هزت أختاي رأسيهما. شعرت بالجوع لكنني لم أرد أن آكل وحيداً. لم أرد أن أفعل أي شيء وحيداً. وحين وافقتا أخيراً على تناول شيء ما أحضرتُ الخبز والزبدة والمربّى ونصفَي لتر من الحليب. وبينما كنّا نأكل

ونشرب بدأت المحادثة. قالت لنا جولي إنها «عرفت» الأمر لأوّل مرة قبل أسبوعين من عيد ميلادي.

سألتها: «حين وقفتِ أوّل مرة على يديك؟»

«وغنّيتَ أغنية الأكمام الخضراء.»

قالت سو: «لكن ماذا فعلت أنا؟» لم نستطع تذكر ما الذي فعلته سو، وراحت تكرّر القول «أعرف أنني فعلت شيئاً ما» حتى طلبتُ منها أن تخرس. وبعد منتصف الليل بقليل صعدنا إلى الطابق العلوي محافظين على قرب شديد من بعضنا على الدرج. صعدت جولي أولاً وحملتُ أنا توم. على فسحة الدرج الأولى توقفنا وتكومنا معاً قبل عبور باب غرفة أمنا. اعتقدت أنني سمعت المنبّه يتكتك. كنت سعيداً لأن الباب كان مقفلاً. وضعنا توم في السرير دون أن نوقظه. ووافقت الفتاتان دون أن تتحدثا عن الأمر أن تناما في السرير نفسه. صعدت إلى سريري واستلقيت على ظهري بتوتر وكنت أدير رأسي بعنف إلى أحد الجانبين كلما خطرت فكرة أو صورة أردت تجنّبهما. وبعد نصف ساعة دخلت إلى غرفة نوم توم وحملته إلى سريري. لاحظت أن الضوء ما زال مشتعلاً في غرفة جولي. وضعت ذراعي حول شقيقي وغرقت في النوم.

حين شارف اليوم التالي على الانتهاء قالت سو: «ألا تعتقدون أننا يجب أن نخبر أحداً ما؟»

كنا نجلس حول البقعة المحاطة بالصخور. أمضينا اليوم كله في الفناء لأن الجو كان حاراً ولأننا كنا خائفين من

المنزل الذي خلفنا الذي لم تكن نوافذه الصغيرة تدعونا إلى التّركيز في شأننا، بل إلى النوم الثقيل. وفي الصباح حدث شجار حول ملابس سباحة جولي. اعتقدتْ سو أنه من الخطأ أن تلبسه. قلتُ إن الأمر لا يهمني. وقالت سو إنه إذا لبست جولي تلك الملابس فهذا يعني «أنها لا تكترث لأمنا.» وراح توم يبكي ودخلت جولي كي تنزع لباسها. وأمضيتُ اليوم وأنا أقلّب كومةً من المجلّات الهزليّة القديمة وكان بعضها لتوم. وقد انتابني إحساسٌ يتعلّق بنا ونحن نجلس منتظرين حدثاً مريعاً، ثم تذكّرت أنّ المُريع قد حدث فعلًا. وكانت سو تقلّب كتبها، وأحياناً تنادي نفسها. وجلست جولي على قمّة البقعة المحاطة بالصخور تخشخش الحصى بيدها، تقذفها وتلتقطها. كانت مستاءة من توم الذي كان ينتحب في لحظة ويطلب الانتباه في أخرى، ثم يذهب إلى اللعب كما لو لم يحدث شيء. وحاول مرّة أن يتسلق إلى ركبة جولي، وسمعتها تقول وهي تدفعه بعيداً: «اذهب من هنا. من فضلك اذهب.» وأثناء النهار قرأتُ له من إحدى المجلات الهزلية.

حين طرحت سو سؤالها، نظرت جولي إلى الأعلى لمدة وجيزة ثم نظرت بعيداً. قلُت: «إذا قلنا لأحد ما...» ثم لزمتُ الصّمت منتظرًا.

قالت سو: «يجب أن نخبر أحداً ما كي تُقام جنازة.» نظرتُ إلى جولي. كانت تحدق عبر سياج فنائنا، عبر الأرض الفارغة إلى الأبراج السكنيّة.

استأنفتُ الكلام قائلًا: «إذا أخبرناهم سيأتون ويضعوننا في الرعاية، في ميتم، ويمكن أن يحاولوا وضع توم في التبنّي.» توقّفت. ارتعبت سو.

قالت: «لا يستطيعون فعل ذلك.»

واصلتُ الكلام: «

سيفرغ المنزل وسيقتحمه الناس ولن يبقى أي شيء.»

«لكن إذا لم نخبر أحداً»، قالت سو وأومأت بشكل غامض نحو المنزل: «ما الذي نفعله إذاً؟»

نظرتُ إلى جولي ثانية وقلت بصوت مرتفع أكثر: «سيأتي أولئك الأطفال ويحطمون كل شيء.»

قذفت جولي حصاها عبر السياج. قالت: «لا نستطيع تركها في غرفتها وإلا ستبدأ الرائحة تفوح منها.»

صاحت سو: «من المريع قول ذلك!»

قلت لجولي: «هل تعنين أننا يجب ألّا نخبر أحداً؟»

سارت جولي نحو المنزل دون أن تجيب. راقبتها تدخل المطبخ وتغسل وجهها في حوض المغسلة. أمسكتْ رأسها تحت صنبور الماء البارد إلى أن تبلّل شعرها ثم نفضته بقوّة وأزاحته عن وجهها. وحين سارت عائدة إلينا تساقطت قطرات الماء على كتفيها. جلست على البقعة المحاطة بالصخور وقالت: «إذا لم نخبر أحداً يجب أن نتدبّر أمرنا بسرعة.» كانت سو على وشك البكاء.

انتحبت: «لكن ماذا نستطيع أن نفعل؟»

كانت جولي تشدّد على الأمر قليلاً. قالت بهدوء شديد:

«ندفنها، بالطبع.» بالرغم من اقتصادها الشديد في الكلام، كان صوتها يرتجف.

قلتُ وقد أثارني ما شعرتُ به من رعب: «أجل! يمكن أن نرتّب جنازة خاصة يا سو.» كانت أختي الأصغر تبكي الآن بكاءً مستمرًا، فوضعت جولي ذراعها حول كتفها. نظرت إليَّ ببرود من فوق رأس سو. استأت فجأة منهما كلتيهما. نهضت وسرت إلى مقدّمة المنزل كي أرى ما الذي يفعله توم.

كان يجلس مع ولد آخر على كومة الرّمل الأصفر عند البوّابة الأمامية، ويحفران نظاماً معقداً من الأنفاق التي تبلغ فوّهتها حجمَ القبضة.

قال صديق توم بثقة رافعاً عينيه نحوي: «يقول إنّ أمّه ماتت لتوّها، لكن هذا ليس صحيحًا.»

قلت له: «هذا صحيح. إنها أمّي أيضًا وقد ماتت لتوها.»

«ها ها، أخبرتك! ها ها!»، قال توم لصديقه وقد غمس رسغيه عميقاً في الرمل.

فكّر صديقه لحظة. «حسناً، أمي ليست ميتة.»

«لا يهمني»، قال توم، وهو يعمل على نفقه.

كرر الولد لي: «أمي ليست ميتة.»

قلت: «ماذا إذاً؟»

صاح الولد: «لأنها ليست. ليست.» تحكّمتُ بتعابير وجهي وركعت إلى جانبهما على الرمل. وضعت يدي بعطف على كتف صديق توم.

قلت بهدوء: «سأقول لك شيئاً. لقد جئت لتوي من

منزلكم. أخبرني أبوك. أمّك ميتة. خرجّت تبحث عنك ودهستها سيارة.»

صاح توم: «أمّك ميتة.»

قال الفتى لنفسه: «ليست ميتة.»

قلت له: «استمع، لقد جئت لتوي من منزلكم. والدك متضايق وهو في الحقيقة غاضب منك. دُهِسَتْ أمك لأنها كانت تبحث عنك.» نهض الفتى. انخطف لون وجهه. تابعت: «لن أذهب إلى البيت لو كنت مكانك، سيعاقبك والدك.» ركض الفتى على ممر فنائنا إلى الباب الأمامي. ثم تذكر، استدار وركض عائداً. كان ينتحب وهو يعبرنا.

«إلى أين أنت ذاهب؟» صاح به توم لكن صديقه هزَّ رأسه وواصل الجري.

حالما خيم الظلام وكنا جميعاً في الداخل صار توم خائفاً ومكتئبًا مرة ثانية. بكى حين حاولنا جعله ينام في السرير، وهكذا تركناه مستيقظاً آملين أن يغفو على الأريكة. وكان ينتحب ويبكي لأقلّ سبب، وكان من المستحيل التحدث عمّا كنا سنفعله. انتهينا إلى أن تحدّثنا حوله صائحين فوق رأسه. وبينما كان توم يصرخ ويقرع الأرض بقدميه لأنه لم يتبقَّ عصير برتقال مركّز وسو تحاول تهدئته، قلت بسرعة لجولي: «أين سنضعها؟» قالت شيئاً ما لم أسمعه بسبب صراخ توم.

كررت: «في الحديقة، تحت البقعة المحاطة بالصخور.»

فيما بعد بكى توم على أمه. وبينما كنت أحاول مواساته

رأيت جولي تشرح شيئاً ما لسو التي كانت تهز رأسها وتحك عينيها. وبينما كنت أحاول إلهاء توم بالحديث عن الأنفاق التي شقّها في الرمل، خطرت لي فجأة فكرتي. فقدتُ مسار ما كنت أتحدث عنه وبدأ توم يبكي بصوت مرتفع مرة أخرى. لم ينم حتى بعد منتصف الليل، وحينها فقط تمكّنت من أن أقول لشقيقتي إنني لا أظن أن دفنها في الحديقة خطّة جيّدة. يجب أن نحفر عميقاً وسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً. ولو فعلنا هذا أثناء النهار فسيرانا أحدهم، وإذا فعلناه في الليل فسنحتاج إلى مشاعل، ويمكن حينها أن يُشاهدنا أحدٌ مُطلًّا من أحد الأبراج السكنيّة. ثم كيف سنخفي الأمر عن توم؟ ثم توقّفتُ عن الكلام بُرهةً كي أؤثّر فيهما. بالرغم من كل شيء كنت أُمَتّع نفسي. فلطالما نال إعجابي المجرمون في الأفلام الذين يناقشون الجريمة الكاملة بانفصال رائع عمّا يحدث حولهم. وفيما كنت أتحدّث لمستُ المفتاح في جيبي فشعرت بالغثيان. واصلت بثقة: «وبالطبع، إذا جاء أحد ما ونظر، فإن أوّل ما سيفعلونه حينها هو الحفر في الفناء. تقرؤون عن أمور من هذا القبيل في الجريدة كل يوم.»

راقبتني جولي بتمعّن. بدت كأنها تأخذ كلامي على محمل الجد. وحين انتهيت قالت: «حسنٌ، وإذًا؟»

تركنا سو في المطبخ مع توم. لم تكن غاضبة أو مرعوبة من فكرتي. كانت في وضع بائس جداً بحيث لم تكترث وهزت رأسها ببطء مثل عجوز حزينة. وفي الخارج كان

هناك ما يكفي من ضوء القمر بالنسبة لنا كي نعثر على عربة النقل اليدويّة والمجرفة. دفعناها إلى الفناء الأمامي وملأناها بالرمل. سكبنا ست حمولات عبر فتحة الفحم في القبو ثم وقفنا خارج المطبخ نتجادل على الماء. قلت يجب أن نأخذه إلى الأسفل بالسطل. وقالت جولي ثمة صنبور ماء في الأسفل. وأخيراً عثرنا عليه في غرفة صغيرة من القبو حيث خُزّنت جميع الملابس القديمة والدُّمى. ولأن القبو بعيد عن غرفة النوم، بدا أقلّ إخافة لي من بقيّة المنزل. وشعرتُ على نحو غامض بأنني مخول بالقيام بالتجريف والمزج، لكن المجرفة كانت مع جولي التي جمعت كومة من الرمل. شقّت كيس إسمنت وفتحته ووقفت منتظرة كي أحضر لها الماء. عملت بسرعة كبيرة ومزجت وخلطت الكومة الضخمة إلى أن أصبحت طيناً لزجاً متماسكًا ورماديًّا. رفعت غطاء الصندوق الصفيحيّ الكبير وجرفت جولي الإسمنت إلى داخله. كان الإسمنت بعمق عشرة إنشات الآن في قاع الصندوق. قررنا أن نقوم بحمل آخر أكبر، وهذه المرة قمت بالمزج بينما جولي أحضرت الماء. فيما كنت أعمل لم يخطر لي أبداً الهدف من عملنا. لم يكن هناك أي شيء غريب حيال مزج الإسمنت. وحين سُكبتْ الكومة الثانية من الإسمنت في الصندوق كنا قد عملنا ثلاث ساعات. صعدنا وذهبنا إلى المطبخ كي نشرب بعض الماء. وكانت سو تنام على كرسي مذرّع بينما توم يستلقي ووجهه إلى الأسفل على الأريكة.

غطينا سو بمعطف وعدنا إلى القبو. كان الصندوق الآن نصف ملآن. وقررنا قبل أن ننزل أمّنا أنّه يجب أن نجهّز كمية كبيرة من الإسمنت. استغرق الأمر وقتاً طويلاً للقيام بهذا. نفد الرمل منّا. وبما أنه كانت هناك مجرفة واحدة فحسب خرجنا كلانا إلى الفناء مرّة ثانية كي نُحضر المزيد. كانت السّماء قد أضاءت مسبقاً جهة الشّرق. قمنا بخمس رحلات بالعربة اليدويّة. وتساءلت بصوت مرتفع ما الذي سنقوله لتوم حين يخرج في الصباح ويجد رمله مختفياً. قالت جولي وهي تقلّد: «بدّدته الريح!» فانفجرنا ضاحكين رغم التعب.

حين انتهينا من إعداد مزيجنا الإسمنتيّ الأخير، كانت الساعة قد شارفت على الخامسة فجرًا. لم ننظر إلى بعضنا أو نتحدث مدّة ساعة تقريبًا. أخرجت المفتاح من جيبي وقالت جولي: «اعتقدتُ أنني فقدته بينما هو معك طيلة الوقت!»

تبعتها على درج القبو وحتى المطبخ. استرحنا وشربنا مزيدًا من الماء. وفي غرفة الجلوس أزحنا جانبًا بعض الأثاث وفتحنا باب الغرفة وأسندناه بحذاء. في الأعلى كنت الوحيد الذي أدار المفتاح في القفل ودفع الباب كي يفتحه، لكن جولي كانت أوّل من دخل. كانت على وشك أن تشعل الضوء ثم غيرت رأيها. ومنح الضوء الأزرق الضارب إلى الرمادي كل شيء في الغرفة مظهراً مسطحاً ثنائي البعد. وبدوْنا كأننا نخطو في صورة فوتوغرافية قديمة لغرفة أمي. لم أنظر مباشرة إلى

السرير. كان الجو رطباً وخانقاً كما لو أن عدّة أشخاص ينامون هنا بينما النوافذ مغلقة. وخلف هذا الانغلاق فاحت رائحة خفيفة. تستطيع أن تشمّها في قمّة نَفَسك حين تكون رئتاك مليئتين. أخذتُ أنفاساً صغيرة بأنفي. كانت مستلقية تماماً كما تركناها، الصورة نفسها التي تمْثُل أمامي كلّما أغمضت عيني. وقفت جولي عند قدم السرير ضامة نفسها. خطوت مقترباً منها وتخلّيت عن فكرة أننا نستطيع حملها. انتظرتُ جولي لكنها لم تتحرك. قلت: «لا نستطيع القيام بهذا.» وكان صوت جولي حادّ النبرة ومجهداً بينما تتحدث بسرعة، كما لو أنها تتظاهر بأنها مبتهجة ومتوثّبة.

«سنلفّها بالشرشف. لن يكون ذلك سيئاً. سنفعل هذا بسرعة ولن يبدو سيئاً.» لكنها لم تتحرك.

جلست على المنضدة وظهري إلى السرير، فغضبت جولي على الفور.

قالت بسرعة: «هذا صحيح. اترك الأمر لي. لماذا لا تفعل شيئاً ما أولاً؟»

«مثل ماذا؟»

«لفّها بالشرشف. هذه خطتك، أليس كذلك؟» أردت أن أنام. أغمضت عينيَّ وجرّبت حركة سقوط حادة. أمسكتُ بجانبَي المنضدة ووقفت. ثم لطّفت جولي حديثها إليّ قائلة: «إذا فرشنا الشرشف على الأرض نستطيع أن نضعها عليه.» خطوت نحو أمي ونزعت الغطاء عنها، وحين فرشته استقرّ على الأرض بحركة

بطيئة أشبه بالحلم، انتفخت الزوايا وانطوت على نفسها، بحيث أنني شهقت من فقدان الصبر. أمسكت أمي من كتفها، نصف مغمض، ودفعتها من فوق المنضدة إلى السرير. تجنّبت النظر إلى وجهها. بدت كأنّها تقاومني، واحتاج الأمر إلى يديَّ الاثنتين لتحريكها. تمددت الآن على جانبها، ذراعاها في زاويتين غريبتين، جسدها ملتو وثابت في الوضعية التي كانت تستلقي عليها منذ أوّل أمس. أمسكت جولي قدميها فيما أمسكت أنا بها من خلف كتفيها. حين وضعناها على الشرشف بدت واهنة جداً وحزينة في رداء نومها، وقد تمدّدت عند أقدامنا كعصفور مكسور الجناح بحيث، للمرّة الأولى، بكيت عليها وليس على نفسي. تركتُ خلفها على السرير لطخة بنية كبيرة بهتت حوافّها الخارجية إلى لون أصفر. وكان وجه جولي مبلّلاً أيضاً حين انحنينا قرب أمنا وحاولنا لفّها بالشرشف. كان الأمر صعباً، كانت أعضاؤها مبعثرة فأعاقت جذعها عن الدوران.

«لن ندعها ترحل. لن ترحل عنّا»، صاحت جولي غاضبة. أخيراً نجحنا في لف الشرشف حولها بشكل مرتخ مرّتين. حالما تمّت تغطيتها صار الأمر أسهل. أمسكنا بها وحملناها خارج غرفة النوم.

أنزلناها درجةً واحدة كلّ مرّة. وفي الأسفل، في بهو الدرج، أعدنا ترتيب الشرشف حيث أفلتت أطرافه. آلمتني رسغاي. لم نتحدث عن الأمر، لكننا عرفنا أننا

يجب أن نعبر بها غرفة الجلوس دون أن نضعها أرضًا. ووصلنا تقريباً إلى باب المطبخ في الجانب الآخر حين نظرتُ إلى يساري نحو كرسيّ سو. كانت تجلس مغطّاة بالمعطف حتى ذقنها تراقبنا بينما نعبر. كنت سأهمس لها. لكن قبل أن أستطيع التفكير بأي شيء، دخلنا من باب المطبخ واندفعنا دائرين إلى درج القبو. وضعناها على عدّة درجات أخيرة بعيداً عن الصندوق. أحضرتُ سطل ماء كي أرطّب كومتنا الكبيرة من الإسمنت. وفيما بعد، حين نظرت بعيداً عن المزيج، كانت سو تقف في المدخل. اعتقدت أنها يمكن أن تحاول إيقافنا، لكن حين وقفتُ أنا وجولي جاهزين كي نرفع الجثة جاءت سو وأمسكت بها من المنتصف. لا يمكن تمديدها بشكل مستقيم، فبالكاد كان هناك فراغ كاف لها في الصندوق. غاصت إنشًا أو اثنين في الإسمنت داخل الصندوق. استدرت من أجل المجرفة لكن جولي سبقتني إلى حملها. وفيما هي تُفرغ الحمولة الأولى من الإسمنت المبلّل على قدميْ أمنا، أطلقتْ صرخة خفيفة. ثم، وفيما كانت جولي تملأ المجرفة ثانية، أسرعتْ سو إلى الكومة والتقطت قَدْر ما تستطيع من الإسمنت بيديها ورمته في الصندوق. ثم بدأت ترمي الإسمنت بقدر ما تستطيع من السرعة. كانت جولي تجرف بسرعة أكبر أيضاً مندفعة إلى الصندوق بحمولات كبيرة وتركض عائدة من أجل المزيد. غمست يدي في الإسمنت ورميت حمل كفٍّ كبيرة. عملنا كالمهووسين. وفي الحال

ظهرت بضع لطخ على الشرشف ثم تلاشت. وتابعنا العمل. كانت الأصوات الوحيدة هي للمجرفة ولتنفسنا الثقيل. انتهينا، ولم يتبق أي شيء من الكومة إلا ممرّ رطب على الأرض، وطفح الاسمنت من الصندوق تقريباً. وقبل أن نعود إلى الطابق العلوي وقفنا كي ننظر إلى ما فعلناه ونلتقط أنفاسنا. قرّرنا أن نترك غطاء الصندوق مفتوحاً كي يجفّ الإسمنت ويقسى بسرعة أكبر.

Squash (10)

القسم الثاني

الفصل السادس

قبل عامين أو ثلاثة من وفاة والدي، اضطرّ هو وأمي إلى حضور جنازة أحد آخِر أقربائهما. ربما كانت عمّة أمي أو خالتها، أو عمّة أبي أو خالته، أو ربما كان عمًّا لأحدهما أو خالًا. لم يُناقَش من الذي مات. ربما لأن الموت لم يعني سوى القليل جداً لوالدينا، وأكيدٌ أنّه لم يعني لنا شيئاً نحن الأطفال. كنا أكثر اهتماماً بحقيقة أننا سنترك وحدنا مسؤولين عن توم مُعظم اليوم. حضّرتنا أمنا من أجل مسؤولياتنا قبل عدة أيام. طبخت غداءنا وكان كل ما علينا فعله هو تسخينه حين نجوع. شرحت لكل منّا حسب دَوْره: جولي، سو ثم أنا، كيف نشعل الفرن. وطلبت منّا أن نَعِدها بأن نتأكّد ثلاث مرات من أننا أطفأناه كما يجب. ثم غيّرت رأيها وقالت إنها ستعدّ لنا غداءً باردًا. لكن هذا لن ينفع، كما قرّرت أخيراً، لأننا كنا في الشتاء ولا نستطيع الاستغناء عن الوجبة الساخنة. وأخبرنا أبي بدوره ماذا نفعل إذا قرع أحدٌ الباب الأماميّ. وأرشدنا ماذا نفعل إذا اندلع حريق في المنزل. يجب ألّا نبقى ونكافحه، بل أن نهرب من المنزل إلى كشك الهاتف، ويجب ألّا ننسى توم مهما كانت الظروف. ويجب ألّا نلعب في القبو، وألّا نصل المكواة الكهربائيّة أو نضع أصابعنا في المآخذ الكهربائية. وحين نأخذ توم إلى المرحاض يجب أن نمسكه طيلة الوقت.

جعلانا نكرّر هذه التوجيهات بشكل رسميّ إلى أن كانت جميع التفاصيل صحيحة، ثم اجتمعنا عند الباب

الأمامي كي نراقب والدينا يسيران إلى محطّة الباص في ثيابهما السوداء. كانا يستديران بعد كل بضعة ياردات، ويلوحان بلهفة، وكنا نلوح لهما بابتهاج. وحين غابا عن البصر أغلقت جولي الباب الأمامي بقدمها وأطلقت صيحة بهجة، وأثناء الحركة نفسها انعطفت وضربتني على أضلاعي بقسوة. دفعتني الضربة إلى الجدار. ركضت جولي صاعدة الدرج ثلاث درجات معاً كل مرة، ونظرت إلى الأسفل إليّ وضحكت. ثم طرتُ أنا وسو خلفها. وفي الأعلى دخلنا في عراك عنيف ووحشي بالمخدات. وفيما بعد، بنيتُ متراساً في قمّة الدرج بمرتباتٍ وكراسٍ اقتحمته شقيقتاي من الأسفل. وملأت سو بالوناً بالماء وقذفته على رأسي. ووقف توم عند قدم الدرج مبتسماً ومتمايلاً. وبعد ساعة تبرّز تحته بسبب الإثارة، واندفعت رائحة نادرة وحادّة إلى الأعلى قاطعت شجارنا. وقفت جولي وسو جانباً وقالتا إنني يجب أن أتعامل مع الموقف لأننا من الجنس نفسه أنا وتوم. احتكمت إلى طبيعة الأشياء دون ارتياح مؤكداً أن من واجبهن كفتيات أن يتصرفن. لم نصل إلى حل فتواصلت معركتنا الوحشية. وفي الحال بدأ توم يبكي. توقفنا ثانية. التقطنا توم وحملناه إلى غرفة نومه ووضعناه في سريره النحاسي الكبير. أحضرت جولي حزامه وقيّدته. الآن صارت صرخاته صمّاء، وصار وجهه قرمزياً متوهجاً. ثم رفعنا حاجز سريره وثبّتناه، وأسرعنا خارج الغرفة متلهفين كي نبتعد عن الرائحة

والصرخات. حالما أغلقت غرفة نوم توم بالكاد سمعنا شيئًا، وواصلنا ألعابنا دون مقاطعة.

لم يستمر هذا أكثر من بضع ساعات، لكن هذا الوقت بدا كأنه شغلَ فسحة كبيرة من طفولتي. قبل نصف ساعة من عودة والدينا، ونحن نضحك من الخطر الذي كنّا فيه، بدأنا ننظّف ونرتّب الفوضى. تشاركنا في تنظيف توم. اكتشفنا الغداء الذين كنا مشغولين جداً بحيث لم نأكله، ورميناه في المرحاض. في ذلك المساء أصابنا سِرّنا المشترك بالهذيان. وتجمعنا في بيجاماتنا معاً في غرفة نوم جولي وتحدثنا كيف «سنفعل ذلك ثانية» في أقرب وقت.

حين ماتت أمنا انتابني شعور بالتحرّر والمغامرة بالكاد تجرّأت على الاعتراف به لنفسي، وكان مستمَدًّا من ذِكرى ذلك اليوم منذ أعوام. لكن الأمر يخلو من الإثارة الآن. الأيام طويلة، والجو حار جداً، وبدا كأن المنزل غرق في النوم. لم نجلس في الخارج لأن الريح تحمل في هبوبها غباراً أسود دقيقًا من جهة الأبراج السكنيّة والطرق الرئيسية التي خلفها. وحتى حين يكون الجو حارًا فإن الشمس لا تظهر أبداً من خلف سحابة صفراء عالية، ويمتزج كل ما أنظر إليه بالوهج فيغدو دون أهميّة. وكان توم هو الوحيد الراضي بيننا، في النهار على الأقل. كان صديقه عنده، ذلك الذي يلعب معه بالرمل. ولم يبد أن توم لاحظ أن الرمل لم يعد موجوداً، ولم يذكر صديقه القصّة التي رويتها له عن أمه. لعبا في

أعلى الطريق داخل الأبنية المدمرة وخارجها. وفي المساء، بعد أن يذهب صديقه إلى البيت، يتعكّر مزاجه ويبكي بسهولة. يذهب إلى جولي في غالب الأحيان حين يريد أن يلفت الانتباه، ويزعجها كثيراً. وكانت تنفجر قائلة: «لا تواصل الطلب مني. ابتعد عني يا توم، لحظة فقط.» لكن هذا لم يُحدث إلا فرقاً قليلاً. فقد اتخذ توم قراره بأن جولي ستعتني به الآن، فراح يتعقّبها في المنزل عاويًا ويتجاهلني أنا وسو حين نحاول إلهاءه. وفي مساء أحد الأيام، حين كان توم متطلّبًا بشكل خاص، بينما جولي مستاءة أكثر من المعتاد، أمسكَتْه فجأة في غرفة الجلوس ومزّقت ثيابه. واصلت القول: «حسناً، لقد حصلت عليها.»

قالت سو فيما كان توم ينتحب: «ما الذي تفعلينه؟»

صاحت جولي: «إذا كان يرغب بأن تعتني به أُمٌّ فيجب أن يبدأ بالقيام بما أطلبه منه. سيذهب إلى السّرير الآن.» كانت الساعة بالكاد الخامسة بعد الظهر. وحين تعرّى توم جرّتْه من ذراعه إلى الحمّام. ومن هناك سمعنا صرخاته وصوت ماء الحمام الجاري. وبعد عشرة دقائق عاد إلينا توم ببيجامته مستسلمًا بشكل كامل، وسمح لجولي بأن تقوده على الدرج إلى غرفة نومه. نزلت نافضةً غُبارًا متخيّلاً عن راحتي كفّيها وقد ابتسمت ابتسامةً وحشيّة.

قالت: «ذاك ما أراده!»

قلت: «وأنت أفضل من يمنحه!» جاء الكلام أكثر حدّة

ممّا نويت. رفست جولي قدمي بلطف.
تمتمت: «انتبه لكلامك وإلّا ستكون التالي.»
حالما انتهينا من عملنا في القبو ذهبت أنا وجولي إلى النوم. ولأن سو نامت قسماً من الليل فقد بقيت مستيقظة واعتنت بتوم في النهار. استيقظت في وقت متأخر بعد الظهر أُعاني من عطش شديد ومن حرارة الجو. لم يكن هناك أحد في الأسفل لكنني استطعت سماع صوت توم في مكان ما في الخارج. وحين انحنيت كي أشرب الماء من صنبور المطبخ طنّت سحابة من الذباب حول وجهي. مشيت على طرفي قدمي الحافيين لأن الأرضيّة حول المغسلة كانت مغطّاة بشيء ما أصفر ودبق، ربما عصير برتقال مسفوح. وفيما كنت ما أزال دائخاً من النوم، صعدت إلى الطابق العلوي إلى غرفة سو. كانت تجلس على سريرها وظهرها إلى الجدار، وركبتاها مشدودتين وفي حضنها دفتر مفتوح. وضعَت قلم الرصاص حين دخلت وأغلقت الدفتر. كان الجو خانقاً كما لو أنها كانت هنا منذ ليلة أمس. جلستُ على حافة سريرها، تماماً قربها. وشعرتُ برغبة في الحديث لكن ليس عن ليلة أمس. أردتُ أحداً ما أن يدلّك رأسي. ضغطت شفتيها النحيلتين معاً كما لو أنها صمّمت على ألّا تفتتح الحديث أوّلًا.
«ما الذي تفعلينه؟» قلتُ أخيراً، وحدّقت في دفتر المذكرات.
قالت: «لا شيء، أكتب فقط.» حملتُ دفترها بيديها

وعلى بطنها.

«ماذا تكتبين؟»

تنهدت. «لا شيء. أكتب فقط.» انتزعتُ الدفتر من يديها وأدرت لها ظهري وفتحته. وقبل أن تسدّ نظري بذراعها، اختلستُ من الوقت ما كفاني لقراءة أعلى الصّفحة: «يوم الثلاثاء. أمي العزيزة...»

«أعده إليّ»، صاحت سو بصوت غريب وعنيف بشكل غير متوقع بحيث تركتها تأخذه مني. وضعتُ الدفتر تحت مخدتها وجلستُ على حافة السرير محدّقة في الجدار أمامها. كان وجهها أحمر، ونمشها أكثر قتامة. وكان النبض في صدغها ناتئاً ويخفق بغضب. هززْت كتفي وقرّرت المغادرة لكنها لم ترفع بصرها نحوي. وبينما كنت أخرج من الباب دفعَتْه وأقفلته، وفيما كنت أبتعد سمعتها تبكي. قرعت بابها وناديتها. ومن خلال انتحابها طلبت مني أن أذهب، وكان هذا ما فعلته. ذهبت إلى الحمام وغسلت الإسمنت الجاف عن يديّ.

لم نأكل وجبة مطبوخة مدّة أسبوع بعد دفن أمي في الإسمنت. كانت جولي تذهب إلى مكتب البريد من أجل النقود وتعود إلى المنزل بأكياس من الأغراض، لكن الخضار واللحوم التي تشتريها تبقى دون لمس إلى أن تُرمى في القمامة. وبدلاً من ذلك كنا نأكل الخبز والجبنة وزبدة الفول السوداني والبسكويت والفاكهة. وأتخم توم نفسه بقضبان الشوكولاتة ولم يبد أنه يحتاج إلى شيء آخر. كنا نعدّ الشاي حين نشعر برغبة في ذلك.

لكننا في معظم الأحيان نشرب الماء من صنبور المطبخ.
وفي اليوم الذي اشترت فيه جولي الأغراض أعطت جُنيهين لي ومثلهما لسو.
«كم تأخذين أنتِ إذاً؟» سألتُها. أغلقت محفظتها.
قالت: «مثلكما. وما يتبقّى هو للطعام والأغراض.»
ولم يمْض وقت طويل حتى صار المطبخ مكاناً للعفونة وأسراب الذباب. ولم يشعر أي منا برغبة في القيام بأي شيء إلا إبقاء باب المطبخ مغلقاً. وكان الجو حاراً جداً.
ثم قام أحد ما، ليس أنا، برمي اللحم في القمامة. متشجعاً، نظّفت بعض زجاجات الحليب، وجمعت الأغلفة الفارغة وقتلت عشرات الذبابات. وفي تلك الليلة نفسها قالت جولي لي ولسو إنه حان الوقت كي نقوم بعمل ما حيال المطبخ. قلت: «لقد أنجزت كثيرًا من المهامّ هناك اليوم، ويبدو أنكما لم تلاحظا ذلك.»
ضحكت الفتاتان.
«مثل ماذا؟» قالت سو، وحين أخبرتهما ضحكتا ثانية بصوت أعلى ممّا يقتضيه الأمر.
قالتا لبعضهما: «حسناً، لقد أنجز حصّته لعدّة أسابيع.»
قرّرت عندها ألّا أفعل أي شيء في المطبخ، ممّا دفع جولي وسو إلى التصميم على عدم تنظيفه أيضًا. ولم نفعل أيّ شيء إلّا بعد أن قمنا بطبخ وجبة بعد عدّة أيّام. في غضون ذلك، انتشر الذباب في أنحاء المنزل وتعلّق في سُحُب رقيقة عند النوافذ، وأصدر صوتَ نقرٍ مستمراً وهو يرمي نفسه على الزجاج.

كنت أمارس العادة السرية كل صباح وكل بعد ظهر، وأتنقّل في المنزل من غرفة إلى أخرى، متفاجئاً أحياناً حين أعثر على نفسي في غرفة نومي، مستلقياً على ظهري، محدقاً في السّقف، فيما كنت أنوي الخروج إلى الحديقة. نظرت إلى نفسي بتمعّن في المرآة. ما المشكلة فيَّ؟ حاولت أن أخيف نفسي بانعكاس عيني، لكنني شعرت فقط بفقدان الصّبر ونفور خفيف. وقفت في وسط غرفتي مصغياً إلى صوت السيارات البعيد والمتواصل. ثم أصغيت إلى أصوات الأطفال الذين يلعبون في الشارع. وامتزج الصوتان وبدا كأنهما يضغطان على قمة رأسي. واستلقيت في السرير ثانية وأغمضت عينيَّ هذه المرة. وحين سارت ذبابة على وجهي صممت ألّا أتحرك. لم أستطع تحمل البقاء في السرير، وأيّ نشاط فكرت به أشعرني بالقرف مقدّماً. وكي أبعث في نفسي التوثُّب راحت أفكّر في أمّي في الأسفل. لم تعد بالنسبة لي أكثر من واقعةٍ وقعت. نهضت وذهبت إلى النافذة ووقفت عدة دقائق ناظراً خلال الأعشاب الظّامئة إلى الأبراج السكنيّة. ثم نظرت في أنحاء المنزل كي أرى إن عادت جولي، كانت تختفي بشكل متكرّر عادة بعد الظهر ساعات طويلة. وحين سألتها إلى أين تذهب طلبت مني أن أهتم بشؤوني فقط. لم تعد جولي وأقفلت سو على نفسها غرفتها. إذا قرعت باب غرفتها ستسألني ماذا أريد ولا أعرف ماذا أقول لها. تذكرت الجنيهين. غادرت المنزل من الخلف

وتسلقت السياج بحيث لا يراني توم فيرغب في الذهاب معي. ودون سبب معيّن انطلقتُ مسرعاً إلى الدكاكين.

لم أكن أعرف ما أريد. اعتقدت أنني سأعرف حين أرى الشيء الذي أريده حتى لو كلّف أكثر من جنيهين، حينها على الأقل سيكون لدي ما أرغب فيه، شيء ما أفكّر فيه. ركضت الطريق كلّه. وكان شارع التسوّق الرئيسي فارغاً إلا من السيارات. كان يوم أحد، والشّخص الوحيد الذي استطعت رؤيته هو امرأة في معطف أحمر تقف على جسر للمشاة يقطع الطريق. تساءلت لماذا تلبس معطفاً أحمر في حرارة كهذه؟ ربما كانت تتساءل لماذا كنت أركض! لأنها بدت تحدق ناحيتي. كانت ما تزال بعيدة عني لكنها بدت مألوفة. ربما كانت أستاذة في مدرستي. مشيت نحو جسر المشاة لأنني لا أريد أن أعود في الحال. وفيما كنت أسير، حدّقت في واجهات الدكاكين إلى يساري. لم أكن أحب الالتقاء بأساتذة المدرسة في الشارع. اعتقدت أنني أستطيع المرور من تحتها، إذا كانت ما تزال هناك، وأتظاهر بأنني لم أرها. لكن على بعد خمسين ياردة من الجسر لم أستطع مقاومة النظر. فقد كانت المرأة أمّي. وكانت تنظر إلي. توقفت. نقلت وزنها من قدم إلى أخرى لكنها لم تتحرك من موقعها. حدقتُ نحوها ثانية. وجدت أنه من الصعب جعل ساقيَّ تتحركان وخفق قلبي بسرعة بحيث تأكدت أنني سأمرض. وحين صرت تقريباً تحت جسر المشاة

توقفت ثانية ونظرت إلى الأعلى. أدركت ما رأيت حقًّا فاجتاحتني راحة كبيرة وضحكتُ بصوت مرتفع. لم تكن أمي بالطبع، كانت جولي ترتدي المعطف الأحمر الذي لم أره من قبل.

ناديت: «جولي! أعتقد أنّك...» وركضت تحت الجسر وعلى درج من الدرجات الخشبية. وجهاً لوجه معها الآن رأيت أنها لم تكن جولي أيضاً. كان لها وجه نحيل وشعر أسود مبعثر يميل إلى اللون الرمادي. لم أعرف إن كانت شابة أو كبيرة في السن. كانت تضع يديها عميقاً في جيبيها وتمايلت قليلاً.

قالت: «ليس معي نقود فلا تقترب مني.»

بينما كنت أسير إلى البيت، عاد الفراغ يسكنني، وفقدتُ أحداث يومي أهميتها. ذهبت مباشرة إلى غرفة نومي. ورغم أنني لم ألتق أحدًا أو أسمع أحدًا، فإنني أدركتُ أن الآخرين داخل البيت. خلعتُ ثيابي واستلقيتُ تحت الغطاء على سريري. وفيما بعد أيقظني ضحك حاد من نوم عميق. انتابني الفضول لكن لسبب ما لم أتحرّك في البداية. فضّلتُ أن أصغي. كانت الأصوات لجولي وسو. في نهاية كل نوبة ضحك تُصدران صوت تنهيدٍ وغناء يمتزج بكلمات لم أستطع سماعها جيداً. ثم يبدأ الضحك من جديد. شعرت بالاستياء بعد نومي المفاجئ. شعرت أن رأسي مشدود ومتقلّص. وبدت الأغراض في الغرفة ضخمة لا يتسع لها المكان الذي تحتله، ومنتفخة من التوتّر. ربما كانت ملابسي مصنوعة من الفولاذ قبل أن

ألتقطها وأرتديها. وبعد أن ارتديت ثيابي وقفت خارج غرفة نومي وأصغيت. سمعت فقط تمتمة صوت واحد وصرير كرسي. نزلت الدرجَ بهدوء قدر الإمكان. كانت لدي رغبة كبيرة في التجسس على شقيقتيَّ، أن أكون معهما غير مرئيّ. كانت الردهة الكبيرة في الطابق الأرضي مظلمة بشكل كامل. وتمكنت من الوقوف على مسافة قليلة من باب غرفة الجلوس المفتوح دون أن يلاحظاني. كان بوسعي أن أرى سو بوضوح، تجلس إلى الطاولة تقصّ شيئاً ما بمقصّ كبير. أمّا جولي التي أعتمها إطار الباب بشكل كامل فقد وقفت مديرةً ظهرها لي، فلم أستطع أن أرى ماذا تفعل. ذراعها تتحرّك إلى الأمام والخلف بصوت خافت ومخشخش. وتماماً حين تقدمت كي أرى بشكل أفضل، خطت فتاة صغيرة أمام جولي وذهبت كي تقف قرب كوع سو. استدارت جولي أيضاً ووقفت خلف الفتاة واستقرت إحدى يديها على كتفها. في يدها الأخرى تحمل فرشاة شعر. بقين معاً هكذا بُرهةً دون حديث. وحين استدارت سو قليلاً رأيت أنها تقص قماشاً أزرق. وكانت الفتاة الصغيرة تميل إلى الخلف على جولي التي شبكت يديها تحت ذقن الفتاة وربتت عليها بلطف على صدرها بالفرشاة.

بالطبع، حالما تحدّثت الفتاة عرفتُ أنها كانت توم. قال: «الأمر يستغرق وقتاً طويلاً، أليس كذلك؟» هزّت سو رأسها. تقدّمت خطوتين إلى داخل الغرفة دون أن يُلاحظ وجودي أحد. كان تركيز توم وجولي ينصبّ في

مراقبة سو التي تقوم بتعديلات على إحدى تنانيرها المدرسيّة، فقد قصّرتها وبدأت تخيطها الآن. كان توم يرتدي فستاناً برتقالي اللون، بدا مألوفاً لي، وفي مكان ما عثروا له على شعر مستعار. كان شعره جميلاً وكثيف التجاعيد. كم من السهل أن تكون شخصاً آخر. صالبتُ ذراعيّ وضممت نفسي. إنها مجرّد ثياب وشعر مستعار، وظننت أن من يرتدي هذا هو توم. لكنني كنت أنظر إلى شخص آخر، شخص قد تكون له حياة مختلفة عن حياة توم. كنت مثاراً وخائفاً. عصرت يديَّ معاً ما دفعَ الثلاثة يستديرون وينظرون إلي لسماعهم صوتَ حركة.

قلت بعد وهلة: «ماذا تفعلون؟»

«نُلبسه»، قالت سو واستدارت إلى خياطتها.

حدق توم بي، ثم استدار نصف دورة نحو الطاولة حيث تعمل سو وراح يحدّق بثباتٍ في إحدى زوايا الغرفة. لعب بحاشية فستانه لافًّا القماش بين سبّابته وإبهامه.

قلت: «ما الهدف من هذا؟»

هزّت جولي كتفيها وابتسمت. كانت ترتدي بنطال جينز فضفاضًا ومطويًا إلى ما فوق ركبتيها، وقميصاً غير مزرّر فوق حمّالة صدرها. وربطت شعرها بقطعة من شريطة زرقاء وفي يدها أخرى مثلها ملفوفة حول إصبعها.

جاءت جولي ووقفت مباشرة أمامي. «آه، هيّا!»، قالت. «ابتهج أيّها البائس!» فاحت منها الرائحة العذبة لمرهم تسمير البشرة، واستطعتُ أن أشعر بالدفء الذي بعثته

بشرتها. لابدّ أنها كانت تتشمّس طيلة النهار، في مكان ما. فكّت الشريطة عن إصبعها ولفّتها حول عنقي. دفعتُ يديها بعيداً حين بدأت تعقدها على شكل ربطة عنق الفراشة تحت ذقني، لكنني فعلت ذلك بتراخ وألحّت هي حتى أنهت العقدة. أمسكت يدي وتبعت أختي إلى الطاولة. قالت لسو: «ها هنا شخص آخر متعب من أن يكون متعكّر المزاج.» كنت سأفك الشريطة لكني لم أرغب بأن أفلت يد جولي التي كانت جافة وباردة. كنا كلنا نراقب الآن من فوق كتف سو. لم أعرف أبداً أنها ماهرة في الخياطة. يدها تندفع إلى الأمام والخلف بالحركة المنتظمة نفسها كمكوك على نَول ميكانيكيّ. لكن تقدّمها الفعليّ كان بطيئاً وشعرت بفقدان كبير للصّبر. أردت أن أرمي القماش والإبرة والدبابيس إلى الأرض بضربة واحدة. كان يجب أن ننتظر حتى تنتهي قبل أن نستطيع التحدث أو قبل احتمال أن يحدث أي شيء آخر.

أخيراً قطعت النسيج القطني بضربة حادّة من رسغيها ووقفت. أفلتت جولي يدي ووقفت خلف توم. رفع يديه ورفعت الفستان فوق رأسه. تحته كان يرتدي قميصه الأبيض. ساعدت سو توم على ارتداء التنورة الزرقاء المثنية وعقدت جولي إحدى ربطات سو المدرسية حول عنقه. راقبت ولعبت بإصبعي بالشريطة الزرقاء. إذا نزعتها الآن سأصبح مُشاهِداً مرة ثانية، وسيكون عليّ أن آخذ موقفاً حيال ما يحدث. ارتدى توم جوارب

بيضاء وأحضرت سو قبعتها. ضحكت الفتاتان وثرثرتا بينما كانت هذه التحضيرات تتم. كانت سو تروي قصّةً لجولي عن صديقة لها في المدرسة قصّرت شعرها جداً، ثم جاءت إلى المدرسة مرتديةً بنطالًا، وحتى أنها ذهبت إلى غرفة تبديل ثياب الفتيان ورأتهم جميعاً على المباول! وانفجرت ضاحكةً من شكلهم وهو يصطفّون صفًّا واحدًا هناك، ثم أعلنها فتاة لا صبيّ!

بينما كنا نحدّق في توم قالت جولي «أليس جميلاً؟» وقف توم هادئاً تماماً ويداه خلف ظهره وعيناه منخفضتان. لم يبد أنه كان مستمتعاً بإلباسه هكذا. خرج إلى الردهة كي يُعجَب بنفسه في المرآة الطويلة. راقبته من المدخل. وقف منحنياً على انعكاسه وحدق في صورته من فوق كتفه.

بينما كان توم خارج الغرفة أمسكت جولي يدي بيديها وقالت: «والآن ماذا سنفعل بالغاضب؟» طافت عينا جولي فوق وجهي «لن تبدو فتاة جميلة مثل توم ببقع مريعة كهذه.»

سو، التي وقفت الآن عند كوعي، ربتت على خصلة من شعري وقالت: «أو بشعر طويل مدهن لا يغسله أبداً.»

قالت جولي: «أو بأسنان صفراء.»

قالت سو: «أو بقدمين تفوح منهما رائحة كريهة.»

أدارت جولي يديّ بحيث واجهت كفّايَ الأرض.

«أو بأظافر قذرة.» تأمّلت الفتاتان مطوّلاً أظافري وأصدرتا أصوات قرف مبالغاً بها. راقب توم من الباب.

كنت بالأحرى أستمتع واقفاً هناك قيد الفحص.

«انظري إلى هذا!» قالت سو وشعرت بها تلمس سبابتي. «ثمة أخضر وأحمر تحته.» ضحكتا، بدتا كأنهما تستمتعان جداً بكل ما تجدانه.

«ما هذا؟» قلت ناظراً عبر الغرفة. كانت هناك علبة كرتونية طويل غطاؤها نصف مفتوح ومخبأة تقريباً تحت الكرسي. نتأ منديل أبيض من إحدى الزوايا.

صاحت سو: «آه! هذا لجولي.»

خطوت عبر الغرفة وسحبت العلبة من تحت الكرسي. كان في داخلها حذاء ذو عنق طويلة تصل إلى تحت الركبة، ومغلّف بمنديل أبيضٍ برتقاليّ. لونه بني غامق وتصدر عنه رائحة قوية من الجلد والعطر.

وبينما تُدير لي ظهرها، طوت جولي ببطء وعناية الفستان البرتقالي الذي ارتداه توم. رفعتُ إحدى فردتي الحذاء.

«من أين أتيت بهذا؟»

«من الدكّان»، قالت جولي دون أن تستدير.

«كم سعره؟»

«ليس غالياً.»

كانت سو مُثارة جداً وقالت بصوت مرتفع: «جولي! ثمنه ٣٨ جنيهًا.»

قلت: «هل دفعت ٣٨ جنيهًا؟»

هزّت جولي رأسها ووضعت الفستان البرتقالي تحت ذراعها. تذكرت الشريطة السخيفة حول عنقي وحاولت

أن أنزعها لكنها لم تخرج، فقد تحولت الربطة إلى عقدة. بدأت سو بالضحك. كانت جولي تسير خارجة من الغرفة.

«لقد سرقتِه» قلت، فهزّت رأسها ثانية. وبينما ما أزال أحمل فردة الحذاء بيدي، تبعتها على الدرج. حين دخلنا غرفة نومها قلت: «أعطيتني أنا وسو جنيهين لكل واحد وأنفقت ٣٨ جنيهاً وحدك على حذاء!» جلست جولي أمام مرآة ثبّتتها إلى الجدار، وراحت تمرّر فرشاةً خلال شعرها.

«خطأ»، قالت بصوت منمّق كما لو كنّا نلعب لعبة تخمين. رميت فردة الحذاء على السرير واستخدمت يدي الاثنتين كي أقطع الشّريطة حول عنقي. صَغُرت العقدة وقست كالحجر. مدّت جولي ذراعيها وتثاءبت.

«إذا لم تقومي بشرائه فلا بد أنك سرقتِه.»

قالت: «كلا»، وأبقت فمها مزموماً على الكلمة راسمةً ابتسامة ساخرة.

«ماذا إذاً؟» وقفت متجهماً خلفها. كانت تنظر إلى نفسها في المرآة وليس إلي.

«ألا تستطيع التفكير بطريقة أخرى؟»

هززت رأسي.

«لا توجد طريقة أخرى إلا إذا صنعتِه بنفسك.»

ضحكت جولي.

«هل حدث وقدّم لكَ أحد ما هدية؟»

«من قدّمه لك؟»

«صديق.»

«من هو؟»

«هذا سر.»

«رجل.»

نهضت جولي واستدارت كي تنظر إلي وجعلت شفتيها صغيرتين ومشدودتين كحبّة توت.

قالت أخيراً: «بالطّبع رجل.» كانت لدي فكرة مشوّشة كوني أخ لجولي، هل لي الحق في أن أطرح عليها أسئلة حول صديقها؟ لكن لم يكن هناك في جولي ما يدعم فكرة كهذه، وشعرت أنني مكتئب أكثر ممّا أنا فضوليّ. التقطتْ مقصًّا من المنضدة جوار السرير، وقطعتْ الشريطة قرب العقدة. حين سحبَتْه كلّه ورمتْه على الأرض، قالت «انتهينا» وقبّلتني بخفّة على فمي.

الفصل السابع

بعد مضيّ ثلاثة أسابيع على وفاة والدتي، أعدتُ قراءة الكتاب الذي أهدتني إيّاه سو في عيد ميلادي. فوجئتُ من كمّ التفاصيل التي فاتتني منه. لم أنتبه قط إلى دقّة القائد هنت في إبقاء سفينة الفضاء نظيفة ومرتبة، خاصّة في الرّحلات الطويلة عبر الفضاء. كل يوم، حسب أيّام الأرض القديمة، ينزل سلّمًا فولاذيًا مقاومًا للصّدأ كي يفتّش غرفة الطعام. كانت أعقاب السجائر وأدوات المائدة البلاستيكية والمجلات القديمة وفناجين القهوة معلّقة بشكل غير مرتب. «الآن بما أنه ليس هناك جاذبية لإبقاء الأشياء في أمكنتها فإنّه يجب أن نبذل جهداً إضافياً كي نبقى مرتّبين»، هذا ما قاله القائد هنت لتقنيّي الكمبيوتر المستجدّين على أسفار الفضاء. وخلال الساعات الطويلة التي لا تُتخذ فيها قرارات ملحّة، يمضي القائد هنت الوقت 'في قراءة ومعاودة قراءة روائع الأدب العالمي وتدوين أفكاره في دفتر كبير مجلّد بالفولاذ، بينما كوزمو، كلبه الوفي، يغفو عند قدميه.' كانت سفينة القائد هنت تنطلق عبر الكون بسرعة الضوء بحثاً عن مصدر الطاقة الذي حوّل الخلايا الصّغيرة إلى وحش. تساءلتُ إن كان سيهمّه أمر غرفة الطعام أو الأدب العالمي لو بقيَت سفينة الفضاء ثابتة معطّلة بشكل تام في الفضاء الخارجي، دون حركة.

حالما انتهيت من قراءة الكتاب أخذته إلى الطابق السفليّ كي أعطيه إلى جولي أو سو. أردت أن يقرأه

أحد آخر. وجدتُ جولي وحيدة في غرفة الجلوس تجلس على كرسي مذرّع وقدماها مثنيّتان تحتها. كانت تدخّن سيجارة. وحين دخلت إلى الغرفة أمالت رأسها إلى الخلف ونفخت عموداً من الدخان نحو السقف. قلت: «لم أعرف أنك تدخنين.» أخذتُ نفَسًا آخر وهزّت رأسها سريعًا بوقاحة. اقتربتُ منها وفي يدي الكتاب. «يجب أن تقرئيه»، قلت، ووضعته في يدها.

أمضت جولي بعض الوقت محدقة في الغلاف بينما وقفتُ خلف كرسيها ناظراً إلى الوحش يهاجم سفينة الفضاء. كانت سفينة القائد هنت تندفع في طريقها إلى الإنقاذ. لم أفحص الغلاف بتمعن من قبل، وقد بدا الآن سخيفاً! شعرت بالعار منه كما لو أنني رسمته بنفسي. سلمتني جولي الكتاب من فوق كتفها وكانت تمسكه من إحدى زواياه.

قلت: «الغلاف ليس جيداً لكن في الكتاب ما هو جيّد.»

هزت جولي رأسها ونفخت المزيد من الدخان، وهذه المرة مباشرة عبر الغرفة.

قالت: «ليس من النوع الذي أفضله.» وَضعتُ الكتاب على الطاولة ووجهه إلى الأسفل، ثم سرت دائراً لأواجه كرسي جولي.

قلت: «ما الذي تعنينه؟ كيف تعرفين أي نوع من الكتب هو؟»

هزت جولي كتفيها.

«لا أشعر برغبة في القراءة كثيرًا على أيّة حال.»

«ستشعرين إذا بدأتِ بهذا الكتاب.» التقطت الكتاب مرة ثانية وحدقت فيه. لم أعرف لماذا كنتُ متلهفاً هكذا كي يقرأه شخص آخر. فجأةً مالت جولي إلى الأمام وأخذت الكتاب من يدي.

قالت: «حسناً. إذا كنت بالفعل تريدني أن أفعل ذلك، فسأقرأه.» تحدثت معي كما لو أنها تتحدث مع طفل على وشك البكاء.

غضبتُ. قلت: «لا تقرئيه فقط كي تسرّيني»، وحاولت أن آخذه منها. أبعدَت الكتاب عن متناول يدي.

قالت مبتسمة: «لا، كلا، بالطبع لا.» أمسكت برسغها ولويته إلى الخلف. نقلت جولي الكتاب إلى يدها الأخرى وزلقته تحت مؤخرتها.

«أنت تؤلمني.»

قلت: «أعيديه إلي. إنه ليس من نوع الكتب التي تحبينها.» سحبتها جانبياً بحيث بان الكتاب. تركتني آخذه دون مزيد من الصراع وأخذته إلى الجانب البعيد من الغرفة. حدّقت جولي بي ودلكت رسغها.

قالت هامسة تقريباً: «ما مشكلتك؟ يجب أن تُحجَرا!.» تجاهلتها وجلست.

جلسنا صامتين في جانبين متقابلين من الغرفة وقتًا طويلًا. أشعلت جولي سيجارة أخرى بينما رحت أمُرّ على نصوصٍ معيّنة في كتابي. تحركتْ عيناي عبر خطوط الطباعة لكنني لم أكن أقرأ أي شيء. رغبتُ في قول شيء يُصالحني وجولي قبل أن أغادر الغرفة.

لكنني لم أستطع التفكير في أي شيء لم يبدُ لي غبياً. فضلاً عن ذلك، قلتُ لنفسي، هي من طلبته. في اليوم السابق أبكيت توم بعد أن نقرت رأسه بظفري. كان يتشاجر خارج غرفة نومي فأيقظني. استلقى على السرير ممسكاً برأسه وصرخ بصوت مرتفع بحيث أن سو ركضت خارجة من غرفتها.

قلت: «هذا خطؤه. إن أول شيء يفعله في الصباح هو إصدار الضجيج.» دلكت سو رأس توم.

قالت بصوت مرتفع طغا على صرخات توم: «أول شيء! إنها بالكاد الساعة الواحدة صباحًا!»

«حسناً ما يزال أول شيء في الصباح بالنسبة لي»، صحتُ وعدت إلى السرير.

وبقدر ما كان يعنيني الأمر، فإن الاستيقاظ من النوم لم يكن يهمّني في شيء. فلم يكن هناك شيء ممتع على نحو خاص للأكل، مثلًا، وكنت الوحيد الذي ليس لديه ما يفعله؛ ذلك أن توم يلعب في الخارج طيلة النهار، وسو تبقى في غرفتها تقرأ الكتب وتكتب في دفترها، أما جولي فتخرج مع الذي أهداها الحذاء. وحين لا تكون في الخارج تنشغل في الداخل بتجهيز نفسها. تستغرق وقتاً طويلاً في الاستحمام وتملأ المنزل برائحة عذبة أقوى من رائحة المطبخ. وتمضي وقتاً طويلاً تغسل شعرها وتمشّطه وتقوم بأمورٍ لعينيها. ترتدي ملابس لم أرها قط من قبل: بلوزة حريرية وتنورة مخملية بنية. وكنت أستيقظ في آخر الصباح، أستمني

وأنام ثانية. أرى أحلاماً، لا كوابيس، بل أحلاماً سيئة أصارع كي أستيقظ منها. أنفقت الجنيهين الخاصين بي على السّمك ورُقاقات البطاطس، وحين طلبتُ من جولي المزيد، أعطتني خمسة جنيهات دون أن تتفوه بكلمة. وأثناء النهار أصغيت إلى المذياع. وفكرت في العودة إلى المدرسة نهايةَ الصّيف، وانّه يجب عليّ ان أجد عملًا. لم أكن منجذبًا لأيٍّ من ذينك الخيارين. وأنام في بعض الأصائل على الكرسي المذرّع رغم أني أتأخر في الاستيقاظ. نظرتُ في المرآة ورأيت أن البقع على وجهي تنتشر على جانبي عنقي. تساءلت إن كانت ستغطي جسدي كله، ولم أكن لأكترث كثيرًا لو فعلتْ.

أخيراً تنحنحت جولي وقالت «حسنًا؟» فنظرتُ من فوقها إلى باب المطبخ.

«لننظف المطبخ»، قلتُ فجأة. كان ما قالته هو الصواب. نهضت جولي على الفور وقامت بمحاكاة رجل عصابة في فيلم: عقب السّيجارة يتدلّى من زاوية فمها.

«أنت تقول الآن ما له قيمة، يا أخي، فعلاً.» ثمّ مدّت لي يدها وسحبتني من الكرسي.

«سأحضر سو» قلت، لكن جولي هزت رأسها.

بمدفعٍ رشّاش[(11)] متخيّل على ردفها، قفزتْ إلى المطبخ وأطلقت النار على المكان: سقطت الصحون المغطاة بالعفونة والذباب والزجاجات الزرقاء، وانهارت الكومة الضخمة من القمامة وتناثرت على الأرض. أطلقت جولي النار على كل هذا، بالضجيج المتلعثم نفسه الذي

كان يستخدمه توم بألعابه بالمسدس. توقفتُ جانباً متسائلاً إن كنت سأنضم إلى هذه اللعبة. استدارت جولي وملأت بطني بالطلقات. سقطتُ على الأرض عند قدميها وكان غلاف علبة زبدة على بعد إنشات من أنفي. أمسكتْ جولي حفنة من شعري وسحبت رأسي إلى الخلف. استبدلت مسدسها بسكين وهي تضغطها على رقبتي وقالت: «إذا قمتَ بأية مشاكل أخرى سأغرزها هنا.» ثم ركعتْ وضغطت قبضتها قرب أريبتي. «أو هنا»، همستْ دراميًّا وضحكنا كلانا.

انتهت لعبة جولي فجأة. شرعنا في كنس القمامة ووضعها في علب كرتونية حملناها إلى صناديق القمامة. سمعتنا سو ونزلت كي تساعدنا. فتحنا المجاري وغسلنا الجدران وكشطنا الأرضية. وبينما كنت أنا وسو نجلي الصحون خرجت جولي كي تشتري الطعام من أجل إعداد وجبة ساخنة. انتهينا حين عادت وبدأنا بتقطيع الخضار من أجل يخنة كبيرة. وحالما وضعت الطبخة على النار رتبت جولي وسو غرفة الجلوس وخرجنا كي ننظف النوافذ. رأيت شقيقتيَّ يشوّش صورتهما غطاء رقيق من الماء، تدفعان الأثاث كلّه إلى مركز الغرفة، ولأوّل مرة خلال هذا الأسبوع شعرتُ بالسعادة، وشعرت بالأمان كما لو أنني أنتمي إلى جيش قوي وسرّي. عملنا أكثر من أربع ساعات، وبالكاد كنت واعياً لوجودي.

أخرجت بعض الحصر وسجادة صغيرة إلى الفناء

ونفضت الغبار عنها بعصا. وكنت قد تقدمت جيداً في هذا حين سمعت صوتاً خلفي فاستدرت. كان توم وصديقه من الأبراج السكنيّة. توم يرتدي ثياب سو المدرسيّة بينما ركبتاه نازفتان بسبب سقوطه. كان توم، في تلك الأثناء، يلعب معظم الوقت في الشارع مرتديًا تنّورة سو. ولم يضايقه أحد من الأطفال الآخرين كما ظننت أنهم سيفعلون. ولم يبد أنهم لاحظوا. لم أستطع فهم ذلك. لن أقبل أن أُشَاهَد حتى ميتاً في تنّورة أختي في عمر توم أو أي عمر آخر. وقف ممسكاً يدَ صديقه، لكنني واصلتُ عملي. كان صديق توم يلف عنقَه بشالٍ بدا مألوفًا لي. تبادلا محادثة قصيرة لم أستطع سماعها بسبب الضجيج الذي كنت أصدره. ثم قال توم بصوت مرتفع: «لماذا تفعل هذا؟»

أخبرته: «لماذا ترتدي تنورة؟» لم يجب توم. ضربتُ السجادة عدة مرات أخرى ثم توقفت ثانية وقلت لصديق توم: «لماذا يرتدي توم تنورة؟»

قال: «في لعبتنا، يلعب توم دور جولي.»

قلت: «ومن أنت؟»

لم يجب الولد.

كنت أرفع العصا وفيما كنت أنزلها قال توم: «إنّه أنت!»

«هل قلت أنا؟» هزّ الاثنان رأسيهما. رميت العصا بعيداً وأنزلت الحصر عن حبل الغسيل. قلت: «ماذا تفعلان في لعبتكما؟»

هز صديق توم كتفيه: «لا نفعل الكثير.»

«هل تتشاجران؟» حاولت أن أوجّه السؤال بالقدر نفسه إلى توم أيضًا، لكنّه كان ينظر إلى جهة أخرى. هزَّ الولد الآخر رأسه. وضعتُ الحصر والسجادة بعضها فوق بعض. «هل أنتما صديقان في لعبتكما؟ هل تمسكان أيدي بعضكما؟» حرّرا أيديهما وضحكا.

تبعني توم إلى المنزل، لكنّ صديقه بقي خارج باب المطبخ. صاح توم: «أنا ذاهب إلى المنزل»، وجعلها تبدو كسؤال. هزَّ توم رأسه دون أن يديره. وفي غرفة الجلوس كانت هناك أربعة صحون على الطاولة وإلى جانب كل صحن سكين وشوكة. ووسط الطاولة توجد زجاجة عصير طماطم وكوب صغير مليء بالملح. وكان هناك كرسي أمام كلّ صحن. بدا الأمر كما لو أننا نعيش حقًّا مثل بقيّة الناس. صعد توم إلى الطابق العلوي كي يرى جولي وسو، بينما رحت أسير جيئة وذهاباً بين المطبخ وغرفة الجلوس مثل القائد هنت وهو يفتّش غرفة الطعام. انحنيت مرتين والتقطت خيوط الزّغب عن السجادة. تدلّى كيس تسوّق قماشيّ ملوّن وجميل من علّاقة مثبتة على باب القبو. في داخل الكيس تفاحتان وبرتقالتان. دفعته بإصبعي فراح يتأرجح كالبندول. تحرّك بحريّة أكبر في إحدى الجهتين أكثر من الأخرى، واستغرقني الأمر وهلة كي أكتشف أن هذا كان بسبب شكل مقبضَي الكيس. دون تفكير، فتحت باب القبو وأشعلت الضوء ونزلت راكضاً على الدرج.

كانت المجرفة مغروسة وسط لطخة مستديرة كبيرة

من الإسمنت الجاف، ما استدعى إلى ذهني صورة عقرب ساعة كبيرة لكنها مكسورة. حاولت أن أفكر مَن مِنّا كان آخر من استخدمه؟ لكنني الآن لا أملك ذاكرة واضحة حول ترتيب الأحداث. التقطتهُ وأسندته إلى الجدار. كان غطاء الصندوق مفتوحاً، كما تركناه. استطعت تذكّر ذلك. مررت يدي عبر الإسمنت الذي يملأ الصندوق. كان رمادياً وشاحباً جداً ودافئ الملمس. لمست يدي فوقه غبارًا دقيقًا، ولاحظت أن شقًّا كالشَّعْرة يتشعّب في أحد طرفيه، فالِقًا السّطح قُطريًّا. انحنيتُ وقرّبت أنفي منه واستنشقت. كانت هناك رائحة واضحة جدًّا، لكن حين وقفت ثانية أدركت أنني شممت اليخنة التي تُطبخ في الأعلى. جلست على مقعد قرب الصندوق وفكرت في أمي. حاولت بصعوبة أن أتصور وجهها في ذهني. رأيت مخطّطًا بيضويًّا لوجه، غير أنّ الملامح داخل ذاك المخطّط لم تبق ثابتة، بل انحلّ بعضها، واستحال الإطار البيضويّ إلى مصباح. حين أغمضتُ عينيّ رأيت بالفعل مصباحًا كهربائيًّا. ومرة ظهر وجه أمي برهةً في شكل بيضويّ وهي تبتسم بشكل طبيعيّ، كما كانت تفعل حين تقف كي تؤخذ لها بعض الصّوَر. اختلقتُ بعض الجُمَل وحاولتُ أن أتخيّلها تقولها. لكن لم أستطع، ولم تبدُ العبارات الأبسط مثل 'ناولني الكتاب' أو ' تصبح على خير' من نوع العبارات التي ستقولها. هل كان صوتها منخفضاً أم مرتفعاً؟ هل سبق وروت نكتة؟ مر على موتها أقل من شهر، وكانت في

الصندوق قربي. حتى هذا لم يكن مؤكداً. أردتُ أن أحفر وأخرجها كي أرى.

مرّرت ظفري على طول الشق الدقيق. لم يكن واضحاً إطلاقاً لي الآن لماذا وضعناها في الصندوق. في الوقت الذي صار فيه واضحاً كان الجواب هو لإبقاء أفراد العائلة معًا. هل كان ذاك سبباً جيداً؟ ربما كان أكثر إمتاعاً لو كنا منفصلين. ولم أستطع أن أفكر أن ما فعلناه شيء طبيعي قابل للفهم حتى ولو كان خطأ. ومثلما لم أستطع تخيّل وجهها، انحلّت الأفكار التي خطرت لي وتلاشت.

إنّ استحالة معرفة أيّ شيء أو الشعور به بشكل يقيني ولّدا لدي إلحاحاً كبيراً كي أستمني. وضعتُ يدي داخل بنطالي. وحين حدّقت بين ساقيَّ رأيت شيئاً أحمر. قفزت مدهوشاً. المقعد الذي كنت أجلس عليه كان أحمر فاتحًا، دهنه أبي منذ مدّة طويلة، ومكانه هو الحمّام في الطابق السفلي. لا بد أن جولي أو سو أحضرتاه من أجل الجلوس قرب الصندوق. وقد أخافني بدلاً من أن يُريحني. بالكاد تحدث بعضنا لبعض عن أمنا. كانت سرَّ الجميع. حتى توم نادراً ما ذكرها وبات يبكي عليها في بعض الأحيان فقط. بحثت في القبو عن علامات أخرى لكن لم أعثر على شيء. غادرت، وحين بدأت صعود الدرج رأيت سو تقف في القمّة تراقبني.

«اعتقدت أنه أنت من كان بالأسفل»، قالت حين وصلتُ إليها. كانت تحمل صحناً في يدها.

قلت: «هناك شق. هل رأيتِه؟»
قالت بسرعة: «إنه يكبر بسرعة. عمومًا، خمّن ما سأخبرك به!» هززت كتفي. أرتني الصّحن.
«شخص ما قادم لشرب الشاي.»
تجاوزتها مندفعًا نحو المطبخ، لكن لم يكن هناك أحد. أطفأت ضوء القبو وأقفلت الباب.
«من؟» استطعت أن أرى الآن أن سو مستثارة.
قالت: «ديريك. صديق جولي.»
راقبتها في غرفة الجلوس وهي ترتب مكاناً إضافياً. أخذتني إلى قدم الدرج وأشارت إلى الأعلى وهمست: «أصغ.» سمعت صوت جولي ثم صوت رجل يرد عليها. وفجأة ضحك الاثنان معاً.
قلت لسو: «إذاً ماذا؟ شيء مهم جداً؟»
كان قلبي يخفق بسرعة. جلست على الكرسي المذرّع ورحت أصفّر. جاءت سو وجلست أيضاً ومسحت عرقاً خيالياً عن جبينها.
«نحن محظوظون أننا نظفنا المنزل، أليس كذلك؟»
واصلت الصفير مختاراً ألحاني عشوائياً في ذُعر، ثمّ استقرّ اختياري تدريجيًّا على لحن واحد.
جاء توم من الطابق العلوي يحمل بين ذراعيه ما بدا قطّة كبيرة. لقد كانت لمّة شعره المستعار. حملها إلى سو وطلب منها أن تُلبسه إياها. أبعدته عنها وأشارت إلى ركبتيه ويديه. رفضت أن تتركه يأخذ اللمّة إلا بعد أن يغتسل.

بينما كان توم في الحمام سألتها: «من يشبه؟»
«لديه سيارة، جديدة، انظر»، وأشارت نحو النافذة. لكنني لم أنظر.
حين عاد توم إلى سو قالت: «إذا أردتَ أن تكون فتاة عند وقت الشاي لماذا لا ترتدي الفستان البرتقالي؟»
هز رأسه وألبسته سو لمة الشعر المستعار. ركض إلى الردهة كي ينظر في المرآة ثم جلس أمامي وراح يحفر أنفَه. كانت سو تقرأ كتاباً وبدأت أصفّر ثانية، لكن هذه المرّة بنعومة أكبر. أخرج توم شيئاً ما من أنفه في طرف سبابته ونظر إليه ومسحه على مرتبة الكرسي. كنت أحياناً أفعل الشيء نفسه لكن فقط حين أكون وحيداً، عادة في السّرير صباحًا. اعتقدت أن هذا لا يبدو سيئاً جداً حين تفعله فتاة صغيرة، فمشيت إلى النافذة. رأيت سيارة رياضية، من طراز عتيق بمساند أقدامٍ عند الباب[12] وغطاء جلديّ مطويّ إلى الخلف. لونها أحمر فاتح، وتحمل خطًّا أسود نحيلًا يجري على طولها كله.
قالت سو: «يجب أن تخرج وتنظر إليها. إنها رائعة.»
قلت: «أنظر إلى ماذا؟» في العجلات مكابح فضيّة، وأنابيب العوادم فضية أيضاً. وعلى طول جانب الغطاء فتحات طوليّة مائلة في المعدن نفسه «للسماح بدخول الهواء،» سمعت نفسي أشرح لراكبٍ متخيّل، ثم أدرت السيّارة في منعطف حاد في جبال الألب «أو للسماح بخروج الحرارة!» حين عدت إلى المقعد، كانت سو قد اختفت.

حدّقت في توم. بدا صغيراً جداً على الكرسيّ الضخم المذرّع، ذلك أن قدميه نتأتا فوق حافة الكرسي بينما رأسه في منتصف الطريق إلى الأعلى على مسند الظهر. حدّق فيّ بضعَ ثوان. ثم نظر بعيداً وطوى ذراعيه. ساقاه منفرجتان تحت تنورته.

قلت: «كيف تشعر وأنت فتاة؟» هزّ توم رأسه وغيّر وضعيّته. «هل هو أفضل من أن تكون ولدًا؟»

«لا أعرف!»

«هل يجعلك تشعر أنك جذّاب جنسيًّا؟»

ضحك توم فجأة. لم يفهم ما قصدتُه، لكنّه عرف أن الكلمة عي إشارة للضحك.

«حسناً، هل ستفعل مثلي؟» ابتسم لي.

«لا أعرف.»

ملت إلى الأمام وحرّكت إصبعي له كي يقترب.

«حين تلبس اللمة والتنورة ثم تذهب إلى المرآة وترى فتاة صغيرة، هل تشعر بشعور ظريف في عضوك، هل يصبح أكبر؟»

تلاشت ابتسامة توم. نزل عن الكرسي وأسرع مبتعداً من الغرفة. بقيت هادئاً تمامًا، وشممْت رائحة اليخنة. صَرّ السّقف. عدلت جلستي على الكرسي. وضعت ساقي فوق الكاحل وشابكت يدي معاً تحت ذقني. كان هناك ضوء، خطوات سريعة على الدرج، ثم ركض توم داخلاً. قال بصوت مرتفع: «إنهم قادمون. إنه قادم.»

قلت: «من؟» وحركت يدي خلف رأسي.

قالت جولي: «هذا ديريك. هذا جاك.»
صافحته دون أن أنهض لكنني أنزلت ساقي عن الأُخرى. لم يتحدث أي منا حين تصافحنا. فيما بعد تنحنح ديريك ونظر إلى جولي. كانت تقف خلف توم وتمرر يديها على كتفيه. قالت: «هذا توم»، بطريقة أوضحت أنها تحدّثت مع ديريك عن توم من قبل.
تحرّك ديريك خلف كرسيي حيث لا أستطيع أن أراه وقال بهدوء: «آه، توم الفتاة.» أطلقت سو ضحكة فاترة، ثم نهضتُ. دخلت جولي إلى المطبخ كي تحضر اليخنة ونادت توم كي يساعدها. وقف ثلاثتنا في وسط الغرفة. كنا قريبين وبدونا نتأرجح قليلاً مع بعضنا. وتعمدت سو أن تجعل صوتها دون نَفَس فبدا سخيفًا.
«في الحقيقة أحببنا سيارتك!» هز ديريك رأسه. كان طويلاً جداً وبدا كما لو أنه يلبس من أجل خِطْبة: بذلة رماديّة باهتة مع قميص وربطة عنق بلون المرهم، وأزرار أكمام وصِدار بسلسلة فضيّة صغيرة.
قلت: «ام تعجبني إلى حدّ أن أحبها.»
استدار نحوي وابتسم ابتسامة خفيفة. كان له شارب كثيف أسود. بدا كاملًا كما لو أنه مصنوع من البلاستيك.
قال بلباقة وهو يبتسم: «آه، لم لا؟»
قلت: «إنها براقة جداً.» حدق ديريك في حذائه بينما تابعت «أعني اللون، أنا لا أحب الأحمر.»
قال ناظراً إلى سو وليس إلي: «للأسف. هل تحبين

الأحمر؟» نظرت سو من فوق كتف ديريك إلى المطبخ.
«أنا؟ آه، أحب الأحمر، خاصّة على السيارات.»
الآن، بما أنه كان ينظر إليّ ثانية، كررت: «لا أحب اللون الأحمر على السيارات لأنه يجعلها تبدو كالدمى.»
خطا ديريك خطوة بعيداً عن كلينا. كان يضع كلتا يديه عميقاً في جيبيه واهتزّ إلى الخلف على كعبيه. تحدث بهدوء شديد.
«حينما تكبر قليلاً ستدرك أنها دمى غالية.»
قلت: «لماذا هي دمى؟ إنها مفيدة جداً للتجوّل.» هز رأسه ونظر في أنحاء الغرفة.
قال لسو: «هذه غرف كبيرة، إنه حقاً منزل كبير.»
قالت سو: «غرفتي صغيرة.» فطويت ذراعي وقلت: «إذا كانت السيارات دمى فإن كل ما تشتريه هو إذاً دمية.»
في هذه اللحظة دخلت سو حاملة اليخنة يتبعها توم حاملاً رغيفاً من الخبز وإناء الفلفل.
«يجب أن أفكر في هذا يا جاك»، قال ديريك واستدار كي يزيح كرسياً عن طريق جولي.
قبل أن نجلس، لاحظت أن جولي ترتدي حذاءها الجديد وتنّورة مخمليّة وبلوزة حريرية. جلست هي وديريك قرب بعضهما إلى الطاولة. جلست في زاوية قرب توم. في البداية كنتُ مستاء جداً بحيث لم أشعر بالجوع. وحين مرّرت لي جولي صحناً قلتُ لها إنني لا أريده. قالت: «لا تكن سخيفًا»، وضعت الصّحن بين سكّيني

وشوكتي، وابتسمت لديريك. هز رأسه مُعربًا عن فهمه للوضع. جلس ديريك منتصباً بشكل كامل. نشر منديلاً أحمر وأزرق على ساقيه. وحين انتهى مسح شاربه به. ثم طواه بعناية قبل أن يعيده إلى جيبه. أردت أن أشاهدهما يلمسان بعضهما. وضعت جولي رأسها على ثنية كوعه، وطلبت منه تمرير الملح لها. مددت يدي إلى إناء الملح قبل ديريك وحين رفعته إلى أختي اندلق الملح كله على الطاولة.

«انتبه!» قال ديريك بنعومة. بدأت الفتاتان محادثة عصبية عن رمي الملح من فوق الكتف[13]، والسّير تحت السلالم. في لحظة ما رأيت ديريك يغمز توم الذي أخفض رأسه بحيث خبأت خصلات شعره وجهه.

فيما بعد أخذت جولي ديريك إلى الفناء في الخارج بينما رحت وسو نجلي الصحون. كل ما فعلته هو الوقوف حاملاً قماشة الصحون بيدي. وكنا ننظر إليهما عبر نافذة المطبخ. كانت جولي تشير إلى الممرات الصغيرة والدرجات التي هي الآن غير مرئية تقريباً تحت تشابك الأعشاب المائلة إلى اللون الرماديّ. أشار ديريك إلى الأبراج السكنيّة وقام بتلويحة عريضة من ذراعه كما لو أنه يأمرها بأن تنهار. كانت جولي تهز رأسها بشكل جدّي.

قالت سو: «إن له فعلاً كتفان عريضان، أليس كذلك؟ لا بد أن بذلته فُصِّلت خصيصاً له.»

حدقنا إلى ظهر ديريك. كانت رأسه صغيرة ومستديرة،

وشعره ذا طولٍ متساوٍ وكأنّه فرشاة شعر.
قلت: «إنه ليس قوياً ولا ضخم الجثّة.» رفعت سو صحوناً مبلّلة من المغسلة وجالت بنظرتها باحثةً عن مكانٍ ما تضعها فيها.
قالت: «يستطيع أن يهزمك بإصبعه الصغيرة!»
صحت: «ها! دعيه يحاول!»
بعد وقت قصير جلسَت جولي وحبيبها قرب البقعة المحاطة بالصخور. أخذت سو القماشة مني وبدأت تجفف الصحون. قالت: «أراهن أنك لا تستطيع تخمين ما يحترفه»، وأجبت: «لا يهمني أبداً ما يحترفه!»
«لن تخمّن ذلك. إنه لاعب سنوكر!»
«ماذا يعني هذا؟»
«يلعب السنوكر من أجل النقود، إنه غنيٌّ غِنىً لا يوصف.»
نظرتُ إلى ديريك ثانية وفكرت في الأمر. كان يجلس جانبيًا بالنسبة لي ويصغي لجولي. انتزع سويقةً طويلة من العشب ومضغ قطعاً صغيرة منها ثم بصقها. كان يهز رأسه طيلة الوقت لما تقوله جولي. وحين تحدّث أخيراً أراح يده بخفّة على كتفها. ما قاله جعل جولي تضحك.
قالت سو: «وهناك شيء عنه في الصحيفة أيضًا.»
«أيّ صحيفة؟»
سمّت سو الصحيفة الأسبوعيّة المحلية فضحكتُ.
قلت: «يُكتب عن الجميع في هذه الصحيفة إذا عاشوا طويلاً بما يكفي.»

«أراهن أنك لا تعرف كم عمره.» لم أجبها.

«ثلاثٌ وعشرون عامًا»، قالت سو وابتسمت لي. أردتُ أن أضربها.

«ما المدهش في ذلك؟»

جففت سو يديها. «إنه عمر مناسب لرجل.»

قلت: «ما الذي تتحدثين عنه؟ من قال؟»

ترددت سو: «جولي هي من قالت.»

شهقت وركضتُ خارجاً من المطبخ. في غرفة الجلوس توقفتُ كي أنظر إلى القائد هنت. كان الكتاب قد وُضِع على الرف أثناء الترتيب. ركضتُ إلى الطابق العلوي وخبطت الباب بقوة واستلقيتُ على الفراش.

Sten gun (11)

Running Boards (12)

(13) يُعتقد أن سكبَ الملح خطأً هو علامة على الحظّ العاثر، وذلك لأن يهوذا الإسخريوطي، أحد تلامذة المسيح الإثني عشر، والذي خان المسيح حسب الكتاب المقدس، سكبَ الملح خطأً أيضًا على طاولة العشاء الأخير. وقد صوّر ذلك دافنشي في لوحته الشهيرة أيضًا. ولإبعاد الحظ العاثر، درجَ الناس على أن يرمي من سكب الملحَ بعضًا منه فوق كتفه اليسرى.

الفصل الثامن

انقلبت أحلامي السيئة إلى كوابيس تتكرّر. كان هناك صندوق خشبي كبير في الردهة لابدّ أنني عبرت جواره مرات عدّة من قبل دون أن أفكر فيه ثانيةً واحدة. توقفت كي أدقّق فيه. الغطاء الذي كان مثبّتًا بالمسامير بإحكام، يتدلّى الآن مرتخياً، بينما بعض المسامير محنيّة إلى الخلف والخشب حولها متشقق وأبيض. اقتربت من الصندوق قدر استطاعتي لكنني لم أتمكن من رؤية ما في داخله. عرفت أنني كنت في حلم وأنّه من المهمّ ألّا أصاب بالذعر. في الصندوق شيء ما. تمكنتُ من فتح عيني قليلاً ورأيت الزاوية السفلى لسريري قبل أن تثقلا وتغمضا من جديد. كنت في الردهة ثانية، أقرب قليلاً إلى الصندوق أحدق فيه بغباء. حين حاولت فتح عينيّ مرة ثانية، انفتحتا واسعاً بسهولة. رأيت زاوية سريري وبعض ملابسي. وفوق كرسيّ كبير، إلى جانب سريري، كانت أمي تجلس وتحدّق فيّ بعينين ضخمتين مجوّفتين. ذاك لأنها ميتة، كما ظننت. لكنّها بدت صغيرة وقدماها بالكاد تلامسان الأرض. وحين تحدّثَت بدا صوتها مألوفاً بحيث أنني لم أستطع أن أتخيل كيف استطعتُ نسيانه بسهولة. لكنني لم أستطع أن أفهم بالضبط ماذا كانت تقول. استخدمَت كلمة غريبة، 'الخضّ' أو 'الاحتكاك'.

«ألا تستطيع التوقف عن الخضّ حتى وأنا أتحدث إليك؟»

«أنا لا أفعل أيّ شيء» قلتُ، ولاحظتُ حين حدّقت إلى الأسفل أنه ما من ملابس هناك في زاوية السّرير، وأنني كنت عارياً وأستمني أمامها. كانت يدي تتحرك جيئة وذهاباً مثل مكوك الحياكة. قلت لها: «لا أستطيع التوقف، لست من يفعل هذا».

قالت بحزن: «ما الذي سيقوله والدك لو كان حياً؟»

وبينما كنت أستيقظ صحت بصوت مرتفع: «لكنكما ميتان.»

رويت هذا المنام لسو بعد ظهر أحد الأيام. حين فتحتْ بابها كي تدخلني لاحظت أنها تحمل دفترها مفتوحاً في إحدى يديها. وبينما كانت تصغي إليّ أغلقَته ووضعته تحت مخدتها. وما أدهشني أن منامي جعلها تضحك.

قالت: «هل يفعل الصبيان هذا طيلة الوقت؟»

«يفعلون ماذا؟»

«تعرف، الاستمناء؟»

بدلاً من أن أجيبها قلت: «هل تذكرين حينما اعتدنا على لعب تلك اللعبة؟»

«أية لعبة؟»

«حين كنت أنا وجولي الطبيبين اللذين يفحصانك، وكنتِ كائنًا من كوكب آخر».

هزّت أختي رأسها وطوت ذراعيها. توقّفتُ. لم أعرف ماذا أقول.

«حسنًا، ما شأن ذلك؟» لقد جئت كي أتحدث عن حلمي وعن أمي وبدأنا نتحدث عن شيء آخر.

قلت ببطء: «ألا تتمنين لو أننا ما نزال نلعب تلك اللعبة؟» هزّت سو رأسها ونظرت بعيداً.

«بالكاد أتذكر أي شيء عن هذا».

«كنت أنا وجولي ننزع ثيابك كلها». بدا الأمر غير محبّب بالطريقة التي عبّرتُ بها.

هزّت سو رأسها ثانية وقالت بشكل غير مُقنع: «هل فعلتما؟ لا أذكر ذلك جيداً في الحقيقة، لم أكن كبيرة جداً». ثم بعد صمت أضافت بمودّة: «كنّا دوماً نلعب ألعاباً سخيفة».

جلستُ على سرير سو. كانت أرضيّة غرفة نومها مغطّاة بالكتب، بعضها مفتوح وموضوع على وجهه. كان كثير منها من المكتبة، وكنت سألتقط واحداً حين شعرت فجأة بالإنهاك من فكرة الكتب كلها. قلت: «ألا تتعبين أبداً من الجلوس هنا طيلة النهار لا تفعلين شيئًا سوى القراءة؟»

قالت سو: «أحب القراءة ولا يوجد شيء آخر كي نفعله.»

قلت: «هناك كثيرٌ من الأمور التي يمكن فعلها»، فقط كي أسمع سو تقول ثانية أنه لا يوجد شيء لنفعله.

لكنها امتصت شفتيها النحيلتين الشاحبتين داخل فمها كما تفعل النساء حين يضعن أحمر الشفاه على شفاههن وقالت: «لا أحب أن أفعل أي شيء آخر».

بعد هذا جلسنا صامتين وقتًا طويلًا. صفرت سو وشعرت بأنها تنتظرني كي أغادر. سمعنا الباب الخلفي

يُفتح في الأسفل وأصوات جولي وصديقها. تمنيتُ لو أن سو تكره ديريك كما أكرهه أنا، وحينها سيكون لدينا أمور كثيرة نتحدث عنها. رفعت حاجبيها النحيلين وقالت: «لا بد أنهما هما». وقلت: «ما المهم في هذا؟» شعرتُ أنني معزول عن جميع من أعرفهم.

واصلت سو صفيرها وقلبت صفحات المجلة، لكننا كنا نصغي بعناية أنا وهي. لم يكونا قادمين إلى الطابق العلوي. سمعت صوت مياه جارية وصوت أكواب الشاي، سألت سو: «لكنك ما تزالين تكتبين في ذلك الدفتر، أليس كذلك؟»

قالت: «قليلاً»، ونظرت نحو مخدتها كما لو أنها كانت جاهزة لتوقفني لو قررت أخذه.

انتظرت لحظة ثم قلت بصوت حزين جداً: «أتمنى لو تسمحين لي بقراءة المقاطع عن أمنا، فقط تلك المقاطع. يمكنك قراءتها لي إذا شئت». في الطابق السفلي تصاعد صوت المذياع إلى الحد الأعلى. «إذا حدث وذهبتَ غربًا، فخُذ طريقي، ذاك هو الطريق السريع الأفضل» أغاظتني الأغنية، لكنني بقيت أنظر بحزن إلى أختي.

«لن تفهم أياً من تلك المقاطع».

«لمَ لا؟»

تحدّثَت بسرعة: «لم تفهم قط أي شيء عن أمي، وكنت دوماً مريعاً بالنسبة لها».

«هذا كذب»، قلتُ بصوت مرتفع، وبعد بضع ثوان كررت:

«هذا كذب». جلسَت سو على حافة سريرها بينما ظهرها مستقيم وإحدى يديها مستقرة على مخدة. حين تحدّثت حدقت بحزن أمامها.

«لم تفعل قط أي شيء طَلبتُهُ منك. لم تفعل أي شيء لتقديم المساعدة. كنت دوماً معتدًّا بنفسك جدًّا، كما أنت الآن.»

قلت: «ما كنت لأرى ذاك المنام عنها لو لم أكن أهتمّ بها».

قالت: «لم تحلم بها، بل حلمتَ بنفسك. لهذا تريد أن تقرأ يوميّاتي، كي ترى إن كان هناك أي شيء عنك فيها».

قلت وأنا أضحك: «هل تنزلين إلى القبو؟ وتجلسين على المقعد وتكتبين عنها في دفترك الأسود الصغير؟»

أجبرتُ نفسي على الضحك. شعرتُ بالاضطراب وكنت أحتاج إلى إصدار كثيرٍ من الضجيج. وفيما كنت أضحك وضعت يدي على ركبتيَّ لكنني لم أستطع أن أشعر بهما تماماً. راقبتني سو كما لو أنها تتذكّر بدلاً من أن ترى. أخذتْ الكتاب من تحت مخدتها، فتحتْه وبحثتْ عن صفحة. توقفت عن الضحك وانتظرت.

«التاسع من آب... مرّ على وفاتكِ ١٩ يومًا. لم يذكرك أحد اليوم» ثم توقّفَتْ، وسالت عدة خيوط من الدموع من عينيها، «كان جاك في مزاج مريع. فقد آلَمَ توم على الدرج لأنه أصدر ضجّة. خدشه خدشًا كبيرًا في رأسه فنزف دماءً غزيرة. على الغداء أعددنا معاً علبتَي حساء. لم يتحدث جاك مع أحد. تحدثت جولي عن رجُلها الذي

يُدعى ديريك. قالت إنها يمكن أن تحضره إلى المنزل في إحدى المرات وسألت إن كنّا نمانع؟ قلت لا. تظاهر جاك أنّه لم يسمع وصعد إلى الطابق العلوي.» عثرت سو على صفحة أخرى وواصلت القراءة بشكل معبّر أكثر: «لم يغيّر ثيابه منذ وفاتك. لا يغسل يديه أو أي شيء وتصدر عنه رائحة كريهة. نكره حتى أن يلمس رغيفاً من الخبز. لا تستطيعين قول أيّ شيء له في حال ضربَك. إنه دوماً على وشك أن يضرب شخصاً ما، لكن جولي تعرف كيف تتعامل معه...» توقفتْ سو، وبدت كأنها ستواصل، لكنها غيرتْ رأيها وأغلقت الدفتر.

«ذاك ما أردتَه»، قالت. بعدها تجادلنا بحدّة عدّة دقائق حول ما قالته جولي على مائدة الغداء.

قلت: «لم تقُل إنها ستُحضر أحداً إلى المنزل.»

«بل قالت!»

«لم تقل». جلست سو على الأرض أمام كتبها وتظاهرت بأنها لم تلاحظ مغادرتي الغرفة.

في الطابق السفلي كان صوت المذياع مرتفعاً بشكل أعلى من السابق. وكان هناك رجل يصيح بطريقة وحشيّة خلال مباراة. توم يجلس في قمة الدرج يرتدي فستاناً أزرق وأبيض شُدّ على جسده بخيطٍ رُبط بعُقدة الفراشة، لكن لمّة شعره المستعار كانت في مكان آخر. حين جلست قربه شممتُ رائحة ضعيفة وكريهة بعض الوقت. كان توم يبكي. فركَ عينيه ببراجمه كما تفعل الفتيات الصغيرات المرسومات على أغطية عُلَب

البسكويت. قطعة كبيرة من المخاط الأخضر تتدلّى من إحدى فتحتي منخريه، وحين نَشَقها اختفت عن البصر. راقبتُه وهلة. خلف صوت المذياع اعتقدت أنني استطعت سماع أصوات أخرى، لكنني لم أكن متأكداً.

حين سألت توم لماذا يبكي، ارتفع بكاؤه أكثر، ثم انتعش وانتحب قائلاً: «ضربتني جولي وصاحت بي»، وبدأ يبكي ثانية.

تركته ونزلت إلى الطابق السفلي. كان صوت المذياع مرتفعاً وجولي وديريك يتجادلان، بدا ديريك كأنه يتوسّل جولي، وفي صوته نبرة رجاء. كانا يتحدثان، ويتصايحان تقريباً، وحين دخلتُ توقفا فجأة. استند ديريك إلى الطاولة، يداه في جيبيه وكاحلاه فوق بعضهما. كان يرتدي بذلة خضراء غامقة وربطة عنق معقودة بمشبك ذهبيّ. وقفت جولي قرب النافذة. سرتُ بينهما نحو المذياع وأطفأته. ثم استدرتُ وانتظرت أحدهما كي يتحدث أولاً. تساءلتُ لماذا لم يخرجا إلى الفناء كي يصيحا على بعضهما؟ قالت جولي: «ماذا تريد؟» لم تكن تلبس مثل ديريك. كانت ترتدي صندلاً بلاستيكيًا وبنطال جينز، وقد ربطت قميصها في عقدة تحت ثديّيها.

قلت ناظراً إلى ديريك: «جئت فقط كي أعرف ما هذه الضجّة ومن ضرب توم».

ضربت جولي الأرض بقدمها ضربة خفيفة كي توضح أنها تنتظر مغادرتي.

مشيت عائداً بينهما ببطء واضعاً كعبَ أحد قدمي أمام أصابع الأخرى كلّ مرة كما يفعل الناس حين يقيسون المسافة دون مسطرة. تنحنح ديريك بهدوء شديد وأخرج ساعة يده من طرف سلسلتها. راقبته وهو يفتحها ويغلقها ويعيدها إلى مكانها. لم أره منذ المرة الأولى التي زار فيها المنزل قبل أسبوع. لكنه جاء في الآونة الأخيرة لزيارة جولي عدّة مرات بسيارته. كنت أسمع محركها في الخارج بينما جولي تركض في الممر الأمامي، لكنني لم أنظر قط من النافذة كما تفعل سو وتوم. وقد أمضت جولي، مرّتين أو ثلاثة، الوقت كله خارج البيت في الليل. لم تخبرني قط إلى أين تذهب، بل أخبرت سو. في الصباح التالي، جلسا في المطبخ ساعات، تحدثا وتناولا الشاي. ربما كتبت سو عن كل ذلك في دفترها دون علم جولي.

فجأة ابتسم ديريك لي وقال: «كيف هي أحوالك يا جاك؟»

تنهدت جولي عاليًا: «لا تسَل»، قالت له، فقلت ببرود شديد: «لا بأس.»

قال: «ما الذي تفعله هذه الأيام؟» نظرتُ إلى جولي حين تحدثتُ.

«لا شيء». لاحظتُ غيظَها من حديثي مع ديريك.

قلت: «وماذا عنك؟»

توقف ديريك قبل أن يتحدث وتنهد: «أتمرّن. بعض الألعاب الصغيرة. لا شيء مهم هذه الفترة كما تعلم...»

هززت رأسي.

كان ديريك وجولي يحدّقان بعضهما في بعض. نقّلتُ نظري من أحدهما إلى الآخر وحاولت أن أفكر في شيء مختلف كي أقوله. دون أن يزحزح عينيه عن جولي، قال ديريك: «هل سبق ولعبت السنوكر؟»

لو لم تكن جولي واقفة هناك لقلت نعم. فقد شاهدت من يلعبها مرّة، وأعرف القواعد. لكني أجبته: «في الحقيقة كلّا».

سحب ديريك ساعته مرة ثانية.

«يجب أن تأتي معي إذًا لتلعب شوْطًا.»

أنهت جولي طويَ ذراعيها وسارت بسرعة خارج الغرفة. أطلقت تنهيدة قصيرة بينما تغادر.

راقبها ديريك وقال: «أعني هل أنت مشغول الآن؟»

فكرت وقلت: «لست مشغولاً».

نهض ديريك ونفض بذلته إلى الأسفل بيديه بالغتي الدقّة والشحوب. ثم دخل الردهة كي يصلح ربطة عنقه أمام المرآة. نادى من فوق كتفه: «يجب أن تُحضروا مصباحاً لهذه البقعة هنا».

غادرنا من خلف البيت. وبينما كنا نجتاز المطبخ لاحظت أن باب القبو كان مفتوحًا على مصراعيه. تردّدت. أردت أن أصعد إلى الطابق العلوي لأخبر جولي عن الأمر. لكن ديريك دفع الباب وأغلقه بقدمه قائلًا: «هيا، لقد تأخرتُ فعلًا»، فأسرعنا في اجتياز ممرّ الفناء الأمامي نحو السيارة الحمراء المنخفضة.

فوجئت أن ديريك قاد السيارة ببطء شديد. جلس منتصباً في مقعده وأمسك المقود مادًّا ذراعيه تمامًا، قابضًا عليه بين سبّابة كلّ كفٍّ وإبهامها، كما لو أن ملمسه يُقرفه. لم يتحدث إليّ. رأيت صفّين من دوائر المؤشّرات إلى جانب دائرة مؤشّر السُرعة، كل منها بعقربٍ أبيض برّاق. راقبتُها طيلة الطريق. لم تتحرّك أي من العقارب في الحقيقة من موقعها إلا تلك التي في مؤشّر دائرة السّاعة. سقنا لمدة ربع ساعة. انعطفنا في طريق رئيسي ونزلنا في شارع ضيق فيه محلات خضار على جانبيه. وفي بعض الأمكنة رأيت أكوام خضار متعفنة جوار قنوات مجاري. رجل في بذلة مجعدة وقف على أحد الأرصفة وراح يحدق فينا بوجه خال من التعبير. كان شعره مزيّتًا وتنتأ من جيبه صحيفة مطويّة. أوقف ديريك السيارة وخرج تاركاً المحرك مداراً. خلفَ الرجل هناك زقاق. حين عبرناه كي نسلكه قال ديريك للرجل: «أركن السيّارة وقابلني في الداخل». هناك في نهاية الزقاق بابٌ متأرجّح أخضر وقد نُقش على دهانها 'صالة أوزوالد.' دخل ديريك أولاً وأمسك الباب مفتوحاً لي بإصبع واحدة دون أن يلتفت. كان هناك شوطا لعب لم ينتهيا على الطاولات الأبعد منا، لكن جميع الطاولات تقريبًا فارغة ومظلمة. هناك طاولة واحدة في وسط الصالة مضاءة أكثر من غيرها، ووُضعت عليها الكرات الملوّنة البراقة جاهزة للّعب. أحد ما ينحني على تلك الطاولة بينما ظهره يواجهنا، ويدخن

سيجارة. في الجدار خلفنا فجوة مربعة، يُطلّ من خلالها عجوز في سترة بيضاء ينظر إلينا. وعلى رفّ ضيق أمامه أكواب وصحون ذات حوافّ زرقاء، وإناء بلاستيكي وكعكة في الداخل. انحنى ديريك كي يتحدث مع العجوز فيما سرتُ بضع خطوات بعيداً عنهما نحو إحدى الطاولات. قرأتُ اسم صانع الطاولة وبلدته على قطعة نحاسيّة مثبّتة بالبراغي على الحافة اليُمنى، خلف التجويف الأوسط.

أصدر ديريك صوت طقطقة لي بلسانه. كان يحمل في كلّ يد كوبَ شاي، ثم أومأ لي برأسه كي أتبعه. دفع بقدمه باباً فانفتح ودخلنا. إلى جانب الباب شاهدت للمرة الأولى نافذة بلوح زجاجي واحد مفقود. تجلس امرأة بنظارة سميكة خلف طاولة وتكتب في دفتر حسابات، وفي الجانب الآخر من الغرفة الصغيرة يجلس رجل على كرسي مذرّع يحمل علبة سجائر. الدخان صعّب الرؤية. هناك مصباح معتم واحد على حافة الطاولة. وضع ديريك كوبَي الشاي قرب المصباح وتظاهر بقرص الرجل على ذقنه. أبدى الرجل والمرأة اهتماماً كبيراً بديريك. دَعوه «الابن» لكنه قدّمهما لي باسم السيّد والسيّدة 'أُو،' أي 'أوزوالد.'

«هذا شقيق جولي»، قال ديريك، لكنه لم يذكر لهما اسمي.

لم يكن هناك مكان للجلوس. أخذ ديريك سيجارة من علبة السيّد أُو. ربتت السيّدة أُو على ساقيها وأصدرت

صوتا متذمّراً، ورفعت فمها كفرخ طير في عُشّ. أخذ ديريك سيجارة أخرى ووضعها في فمها فضحك السيّد أُو، وأومأ جهة الطاولات.

«غريغ ينتظر منذ ساعة يا بني».

هز ديريك رأسه. كان يجلس على حافة الطاولة، وكنت أقف قرب الباب. السيدة أُو هزت إصبعها في وجه ديريك.

«من هو الولد الشقي؟»

ابتعد قليلاً عنها ومدّ يده نحو كوب الشاي. لم يمرّر لي كوبي.

قالت السيدة بحرص: «لم تأت أمس يا ولدي؟»

غمزني السيّد أُو وقال: «لديه سمكة أخرى كي يقليها».

ارتشف ديريك شايه ولم يقل شيئاً.

واصل السيد أُو: «لكن كان هنا حشد كبير ينتظر حضورك.»

هزّ ديريك رأسه وقال: «حقًّا؟ جيّد.»

قالت السيدة أُو لي: «يأتي إلى هنا مُذ كان عمره اثني عشر عاماً، ولا نطالبه بأجر الطاولة أبداً. أليس كذلك يا ولدي؟»

أنهى ديريك احتساء شايه ونهض. قال للسيّد أُو: «مضرب من فضلك.»

نهض السيد أُو وارتدى نعاله. يحمل الجدار خلفه مسنَدًا للعصيّ. وهناك عُلبة جلديّة في طرفٍ ما، مستدقّة ومُقفل عليها. مسح السيّد أُو يديه بقطعة قماش

صفراء، ثم فتح العلبة وسحب المضرب. كان بُنيًّا غامقًا جداً، أسود تقريباً. وقبل أن يعطيها لديريك قال لي: «أنا الوحيد الذي يُسمح له بلمس مضاربه».

قالت السيدة أُو: «وأنا»، لكن السيّد أُو ابتسم لي وهزّ رأسه.

الرجل الذي ركنَ السيارة كان ينتظر خارج المكتب.

قال ديريك: «هذا تشاس، هذا شقيق جولي».

لم ننظر أنا وتشاس بعضنا إلى بعض. وحين سار ديريك ببطء نحو الطاولة الوسطى بعصاه، سار تشاس على رؤوس أصابعه إلى جانبه متحدثاً بسرعة في أذنه. سرتُ خلفهما تماماً. شعرتُ برغبة في المغادرة. كان تشاس يقول شيئاً ما عن حصان، لكن ديريك لم يجب أو حتى يدير رأسه كي ينظر إليه، وحالما صار ديريك قرب الطاولة انحنى غريغ كي يسدّد ضربته الافتتاحية. كان يرتدي سترة جلديّة بنيّة فيها مزْقٌ كبير في أحد أكمامها، بينما شعره مربوط إلى الخلف على شكل ذيل فرس. أردتُه أن يفوز. اندفعت الكرة البيضاء على طول الطاولة، أزاحت إحدى الكرات الحمراء وعادت إلى نقطة انطلاقها. خلع ديريك سترته وأعطاها تشاس كي يحملها. ثبت رباطين فضيّين حول ذراعيه كي يرفع طرفي أكمامه عن رسغيه. أدار تشاس باطن السترة نحو الخارج وطواها على ذراعه، ثم فتح صحيفة إلى صفحة نتائج سباق الخيول. انحنى ديريك وضرب الكرة البيضاء دون أن يبدو أنه يسدّد حقًّا. حين ضربت

الكرة الحمراء المزاحة داخلةً التجويف السفلي، رفع اللاعبون على الطاولات الأخرى أنظارهم ثم ساروا نحونا. أصدر كعبا ديريك صوتَ طقطقة حادًّا وهو يخطو إلى الطرف الآخر من الطاولة. ضُربت الكُرة البيضاء وشَتّتتْ كل الكُور الحمراء واصطفت مع السوداء. وقبل أن يسدّد ضربته، حدّق ديريك فيّ كي يرى إن كنت أراقبه يلعب، لكنني نظرتُ بعيدًا.

في الدقائق القليلة التالية ضرب الحمراء والسوداء وأدخلهما في الجيوب السفليّة. بين كل ضربة وأخرى كان يسير بسرعة من طرف من الطاولة إلى الآخر ويتحدّث إليّ بصوت خافت دون أن ينظر إلى جهتي، كما لو أنّه يتحدث مع نفسه.

«هناك نظام مضحك في بيتكم»، قال بينما نزلت أوَل كرة سوداء في جيبٍ سُفليّ. غريغ واللاعبون الآخرون راقبوا وأصغوا لمحادثتنا.

قلت: «لا أعرف.»

قل ديريك لتشاس: «والداه ماتا وأربعتهم يعتنون بأنفسهم.»

«كالأيتام»، قال تشاس، دون أن يرفع عينيه عن صحيفته.

«إنه منزل كبير»، قال ديريك وهو يجتازني كي يذهب إلى الكرة البيضاء ثانية.

قلت: «أجل، كبير جداً».

«لا بد أن ثمنه باهظ أيضًا.» اختفت كرة حمراء ببطء

من فوق حافة أحد التجاويف، وكان قادراً على التسديد نحو كُرة سوداء دون أن يغير موقعه. قال: «يمكنك تحويل كل تلك الغرف إلى شقق».

قلت: «نحن لا نفكر في هذا».

سار حول الطاولة آخذًا الطّريق الأطول، وتنهّد تشاس من أمرٍ قرأه في الصّحيفة. نزلتْ كرة حمراء أخرى. «تستطيع أن...» كان ديريك يراقب أين ستتوقف الكرة البيضاء «تستطيع أن تفعل شيئاً بذلك القبو».

«مثل ماذا؟» قلت، لكن ديريك هزّ كتفيه وضرب الكرة السوداء بقوّة جهة إحدى التجاويف.

أخطأ ديريك أخيرًا في تسديد الكرة السّوداء، فأصدر صوتَ هسيس حاداً من بين أسنانه.

رفع تشاس عينيه عن صحيفته وقال: «٤٩».

قلت لديريك: «أنا ذاهب الآن»، لكنه استدار مبتعداً ليأخذ سيجارة من أحد اللاعبين الآخرين. ثم سار إلى الطرف الآخر من الطاولة كي يراقب غريغ.

شعرت بالغثيان. استندت إلى عمود ونظرت إلى السقف. كانت هناك عوارض حديدية وخلفها ألواح زجاجية مثبتة في السقف وملطخة بدهان بني ضارب إلى الصفرة. نظرت إلى الأسفل وكان ديريك يلعب ثانية لكن ببضع كرات فقط تُركت على الطاولة. حين انتهت اللعبة جاء إليَّ ديريك من الخلف وأمسك معصمي وقال: «تريد أن تلعب؟» قلت له كلا وانسحبت مبتعداً.

قلت: «أنا عائد إلى المنزل الآن.»

وقف ديريك أمامي وضحك. أسند الطرف السميك من عصاه على قدمه وهزها إلى الأعلى والأسفل.

قال: «أنت غريب، لماذا لا تسترخي، لماذا لا تبتسم أبداً».

استندت إلى العمود. شيء ما ثقيل ومظلم كان يضغط عليّ. حدقت في السّقف ثانية غير متأكد تماماً من أني سأتمكن من رؤيته.

واصل ديريك هزّ عصاه، ثم خطرت له فكرة. تحرك بشكل مفاجئ ونادى من فوق كتفه: «هيه تشاس! غريغ! تعالا وساعداني في جعل هذا الولد يضحك.» ابتسم وغمزني حين قال هذا، كما لو أنني يجب أن أكون مشاركاً في النكتة أيضاً. ظهر تشاس وغريغ على كل من جانبي ديريك وإلى الخلف منه قليلاً. قال ديريك: «هيا، ضحكة كبيرة أو سأخبر أختك.» صارت وجوههم أكبر. «أو سأجعل غريغ يروي لك إحدى نكاته». ضحك تشاس وغريغ. أراد الجميع أن يكونوا على جانب ديريك الأيمن.

قلت: «دعوني وشأني!»

قال تشاس: «آه، اتركوا الفتى لشأنه»، وسار مبتعداً.

الطريقة التي قال بها ذلك جعلتني أرغب في البكاء، لكن كي أريهم أنّ هذا آخر شيء يمكن أن أفعله، حدّقت في ديريك بحدّة دون أن ترفّ عيناي. لكن الماء تجمع في إحدى العينين وبالرغم من أنني أمسكت الدمعة حالما تدحرجت، عرفتُ أنهم رأوها. مدّ غريغ يده نحوي كي

يصافحني.
قال: «لا نقصد الأذى أيها الصديق القديم.» لم أصافحه لأن يدي كانت مبللة. سار غريغ مبتعداً، وبقيت أنا وديريك فقط.
استدرتُ وسرت نحو الباب. ترك ديريك عصاه على الطاولة وجاء معي. سرنا قريبين بحيث يمكن أن تُصفَّد أيدينا معاً.
قال: «أنت في الحقيقة مثل أختك.»
ولأنني لم أستطع الاقتراب من ديريك، كان عليّ أن أتجه إلى يسار الباب، نحو حجرة الشاي. وحالما شاهدنا قادمين، رفع العجوز الذي هناك إبريق شايه الفولاذي وملأ كوبين. كان له صوت نبرته عالية جداً.
قال موجّهاً الكلام لديريك ولي: «تستطيعان شرب هذين على حسابي مقابل نقاطكما التسعة والأربعين،» فكان عليّ أن أرفع أحد الكوبين. أخذ ديريك كوبه أيضاً واستندنا إلى جدار مواجهين بعضنا. بدا عدّة دقائق كأنّه على وشك أن يقول شيئاً لكنّه بقي صامتاً. حاولت أن أشرب الشاي بسرعة ممّا جعلني أشعر بالحرارة والغثيان. تحت قميصي وخزني جلدي وشعرت بحاجة لحكّه، وتعرّقت قدماي بينما أصابعهما صارت زلقة بعضها إزاء بعض. أسندت رأسي إلى الجدار.
خرج غريغ مع تشاس من باب آخر وعاد اللاعبون الآخرون إلى طاولاتهم. وعبر الجدار سمعت السيدة أُو تتحدّث دون انقطاع. بعد وهلة اعتقدت أنه ربما كان

صوت المذياع.
قال ديريك: «هل أختك دوماً هكذا، أم أن هناك خطبًا ما يجب أن أعرف عنه؟»
قلت على الفور: «دوماً هكذا؟» خفق قلبي، لكن ببطء. كان على ديريك أن يفكر لحظة. مدّدَ الجلد تحت ذقنه ولمس ربطة عنقه.
«بيننا، من رجل لرجل، هل تفهم؟» هززتُ رأسي. «خُذ وقتَ ما بعد الظهر اليوم، مثلاً. كانت تفعل شيئاً ما، وهكذا فكرت أن ألقي نظرة على قبوكم. لا أذى في هذا، لكنها صارت مُضحكة جداً حيال هذا الأمر. أعني، لا يوجد شيء في الأسفل، أليس كذلك؟» لم أعتقد أنه سؤال حقيقي ولذلك لم أجبه. لكن ديريك كرّر: «هل يوجد؟»
قلت: «كلّا، كلّا. بالكاد أذهب إلى هناك، لكن لا يوجد شيء.»
«إذاً لماذا انزعجَت كما فعلَت؟» حدق بي ديريك وانتظر جواباً كما لو أنني كنت الشخص الذي كان منزعجًا.
قلت له: «إنها دوماً هكذا. هكذا هي جولي دائماً».
نظر ديريك لحظة إلى الأسفل، إلى حذائه، ثم رفع نظره وقال: «وفي وقتٍ آخر كانت...»
لكن السيّد أُو خرج من مكتبه في هذه اللحظة وبدأ يتحدث مع ديريك. أنهيت بقيّة الشاي وغادرت.
في البيت كان الباب الخلفي مفتوحاً فدخلت بهدوء شديد. شممت روائح في المطبخ لشيء قُليَ منذ وقت

طويل. واعتراني إحساس غريب أنني غبتُ عدّة أشهر، وأن كثيراً من الأمور حدثت في غيابي. جولي كانت في غرفة الجلوس، تجلس قرب الطاولة التي تحمل صحونًا مثّسخة ومقلاة. بدت مسرورة جداً من نفسها. توم يجلس في حضنها واضعًا إبهامه في فمه، حول عنقه منديل مربوط كمريلة، ويحدّق عبر الغرفة بنظرة فارغة بينما رأسه مستندة إلى صدر جولي. لم يبد أنه لاحظ دخولي وواصل إصدار صوت امتصاص خافت بإبهامه. وضعت جولي يداً على الجزء الضيّق من ظهره. ابتسمت لي ووضعت يدي على قبضة الباب كي أوازن نفسي. شعرت كما لو أنني لا أزن شيئاً ويمكن أن أُجرَف بعيدًا.

قالت جولي: «لا تتفاجأ، توم يريد أن يكون طفلاً صغيراً.» أراحت ذقنها على رأسه وبدأت تهزّه إلى الأمام والخلف بشكل خفيف. «كان ولداً شقياً جداً هذا النهار» قالت، موجّهة كلامها إليه أكثر من توجيهه إليّ، «وهكذا تبادلنا حديثاً طويلاً وقررنا كثيرًا من الأمور.» كانت عينا توم تغمضان. جلستُ إلى الطاولة قريباً من جولي لكن حيث لا أستطيع رؤية وجه توم. أكلتُ نتفاً من قطع لحم الخنزير الباردة التي في المقلاة. راحت جولي تهزّ توم وتدندن بهدوء.

نام توم. نويت أن أتحدث مع جولي عن ديريك لكنها نهضت بينما توم بين ذراعيها، وتبعتهما إلى الطابق العلوي. دفعت جولي باب غرفة النوم وفتحته بقدمها.

كانت قد أحضرت من القبو سريرنا النحاسيّ القديم ووضعته قُرب سريرها تماماً. كانت قد ركّبَته وأنزلت أحد جوانبه إلى الأسفل. أزعجني أن أرى السريرين قريبين جداً من بعضهما. أشرت وقلت: «لماذا لا تضعيه في غرفته؟» أدارت جولي ظهرها لي وهي تضع توم في سرير الأطفال. جلس مائلاً قليلاً فيما كانت جولي تفك أزراره. كانت عيناه مفتوحتين.

«أراده هنا، أليس كذلك يا حبيبي؟» هزّ توم رأسه وهو يزحف تحت الأغطية. ذهبت جولي إلى النافذة كي تسدل الستائر. تقدمتُ في شبه الظلمة ووقفتُ عند طرف سرير الأطفال. مرت قربي، قبلتْ رأس توم ورفعت جانب السرير بعناية. بدا كأن توم نام على الفور. «هنا ولد جيد»، همست جولي وأخذت يدي وقادتني خارج غرفة نومها.

الفصل التاسع

لم يمض وقت طويل على قراءة سو لي من دفتر يومياتها حتى بدأت أشم رائحة على يدي. كانت عذبة وفيها أثر عفونة خفيف. وكانت على الأصابع أكثر ممّا على راحة الكفّين أو بين الأصابع. ذكرتني الرائحة باللحم الذي تخلّصنا منه. توقّفتُ عن ممارسة العادة السرية. ولم أعد أرغب بها. وبعد أن غسلتُ يديَّ صارت تفوح منهما رائحة الصابون فقط. لكن إذا أدرت رأسي بعيداً وحركت يداً بسرعة أمام أنفي تكون الرائحة السيئة هناك فحسب تحت عطر الصابون. كنت أمضي وقتاً طويلاً وأنا أستحم بعد الظهر وأستلقي هادئاً بشكل كامل دون تفكير حتى يصير الماء فاترًا. قصصت أظافري وغسلت شعري وعثرت على ثياب نظيفة. في غضون نصف ساعة عادت الرائحة لكنها كانت خفيفة جداً وأقرب إلى ذكرى رائحة. تندّرت جولي وسو على مظهري. قالتا إنني ألبس من أجل عشيقة سريّة. على أيّ حال، مظهري الجديد جعل جولي وديّة معي أكثر. اشترت لي قميصين من مركز مبيعات للأعمال الخيرية، جديدين تقريباً، مناسبين لمقاسي. اقتربتُ من توم وهززتُ أصابعي تحت أنفه. قال بصوته الطفولي: «رائحة سمك فاسد». عثرت على موسوعة الطب المنزلية وبحثت عن كلمة سرطان. اعتقدت أنني أتعفن من مرض بطيء. نظرتُ في المرآة وحاولت أن ألتقط أنفاسي بكفّيّ وقد كوّرتهما كالأكواب. في أحد

المساءات سقط المطر أخيراً، وبغزارة. أخبرني أحدهم مرة أن ماء المطر هو أنظف ماء في العالم. وهكذا نزعت قميصي وحذائي وجواربي ووقفت في قمة البقعة المحاطة بالصخور ويداي ممدودتان. جاءت سو إلى باب المطبخ وبصوت أعلى من صوت المطر سألتني ما الذي أفعله. ذهبَت ثم عادت مع جولي. نادتاني وضحكتا ثم عدت معهما.

على العشاء تخاصمنا. قلت إنها المرة الأولى التي يسقط فيها المطر منذ أن توفيت أمنا. قالت جولي وسو إن المطر تساقط عدّة مرات مذّاك. حين سألتهما متى بالضبط؟ قالتا إنهما لا تذكران. قالت سو إنها تعرف أنها استخدمت مظلّتها لأنها الآن في غرفة نومها وقالت جولي إنها تذكرت صوت ماسحتيْ الماء في سيارة ديريك. قلتُ إن هذا لا يبرهن على أي شيء. غضبتا ممّا جعلني أشعر بالهدوء ونويت أن أزيد من غضبهما. تحدّتني جولي كي أبرهن أن المطر لم يتساقط وقلت إنني لا أحتاج إلى ذلك لأنني أعرف أنها لم تمطر. شهقت أختاي من الغيظ. حين طلبت من سو أن تناولني إناء السكر تجاهلتني. سِرت حول الطاولة وحين كنت أمد يدي إلى الإناء، التقطته ووضعته في الجانب الآخر من الطاولة قرب المكان الذي كنت جالساً فيه. رغبت أن أضربها بقسوة على قفا عنقها لكن جولي صرخت بحدّة «تجاسر!» فانسحبتُ مجفلاً ومرّت يدي فوق قمّة رأس سو. على الفور شممتُ الرائحة ثانية. وبينما كنت أجلس

انتظرت أن تتّهمني جولي وسو بالضراط لكنهما بدأتا محادثة مُصمّمة لإقصائي عنها. جلست على يديَّ وغمزت توم.

حدق توم بي وفمه نصف مفتوح واستطعت أن أرى طعاماً ممضوغاً على لسانه. جلس قريباً من جولي.

وبينما كنا نتجادل حول المطر لطخ وجهه بالطعام. كان ينتظر جولي كي تتذكره، وتمسح وجهه بالمريلة التي حول عنقه وتقول له إنه يستطيع مغادرة المائدة. حينئذ يمكن أن يزحف تحت الطاولة ويجلس بين ساقيها بينما ننتهي من الأكل.

في أوقات أخرى كان ينزع مريلته ويركض إلى الخارج كي يلعب مع أصدقائه ويتوقف عن كونه طفلاً إلى أن يعود ثانية إلى الداخل ويعثر على جولي. كطفل، نادراً ما يتحدث أو يصدر ضجّة. كان فقط ينتظر حركتها التالية. حين تعتني به تكبُر عيناه ويزداد تباعدهما، وفمه يرتخي ويبدو كأنه يغوص في نفسه.

في مساء أحد الأيام، حين حملت جولي توم كي تأخذه إلى الطابق العلوي، قلت: «إن الأطفال الحقيقيين يركلون ويصرخون حين يوضعون في السّرير.» حدّق بي توم من فوق كتف جولي وضاقت عيناه وفمه فجأة. قال بشكل مقنع: «كلا، لا يفعلون، ليس دائمًا»، وترك نفسه يُحمل خارج الغرفة.

لم أستطع مقاومتهما معاً. تعقّبتهما مفتوناً، منتظراً أن أرى ما سيحدث. بدا كأن جولي تستمتع بوجود جمهور،

وروت نكاتاً عن ذلك.
قالت مرة: «تبدو في غاية الجدية، كما لو أنك تراقب جنازة!» بالطبع كان توم يريد جولي لنفسه.
في المساء التالي تبعتهما إلى السرير ثانية وقت النوم واستندت في الردهة بينما كانت جولي تعرّي توم الذي كان يدير ظهره لي. ابتسمت جولي لي وطلبت مني أن أحضر بيجامة توم. استدار توم في سرير الطفل وصاح: «اذهب! أنت اذهب من هنا!»
ضحكت جولي وداعبت شعره وقالت: «ما الذي سأفعله بكما؟» لكنني خطوت خارجاً من غرفتها واستندت إلى الجدار في الممر وأصغيت بينما كانت جولي تقرأ له قصة. حين خرجت أخيراً لم تندهش من رؤيتي هناك. دخلنا إلى غرفتي وجلسنا على السرير. لم نشعل الضوء. تنحنحت وقلت ربما كان سيئاً بالنسبة لتوم أن يواصل التظاهر بأنه طفل.
«ربما لن يتمكن من تجاوز الأمر.»
لم تجب جولي في البداية. استطعت أن أميّز فحسب أنها كانت تبتسم لي. وضعت يدها على ركبتي وقالت: «أعتقد أن أحداً ما يغار.»
ضحكنا واستلقيت على السرير. بجرأة لمست آخر ظهرها بأطراف أصابعي. ارتعشت وزادت الضغط على ركبتي.
ثم قالت: «هل تفكر كثيراً بأمنا؟»
همست: «نعم، هل تفعلين؟»

«بالطبع.» لم يكن هناك ما نقوله، لكنني أردت أن نواصل الحديث.

«هل تعتقدين أن ما فعلناه صحيح؟»

رفعت جولي يدها عن ركبتي. صمتَت وقتًا طويلًا حتى ظننت أنها نسيت السؤال. لمست ظهرها ثانية فتحدثت على الفور. «بدا صحيحًا آنذاك، لكنني لا أعرف الآن. ربما كان علينا ألّا نفعل ما فعلناه.»

«لا نستطيع فعل أي شيء حيال الأمر الآن»، قلت وانتظرت أن تخالفني الرأي. انتظرت أيضاً عودة يدها إلى ركبتي. مررت سبابتي على طول عمودها الفقري وتساءلت ما الذي تغير بيننا. هل استحمامي أحدث فرقاً لديها؟ قالت أخيراً: «كلّا، كما أفترض، كلّا»، وطوت ذراعيها بحركة سريعة أوحت أنها أُهينَت. في لحظة كانت مسؤولة وفي اللحظة التالية كانت صامتة، تنتظر أن تُهاجم.

قلت فاقداً الصَبر: «سمحتِ لديريك بالدخول إلى القبو.»

تغيّر كل شيء بيننا الآن. عبرت جولي الغرفة، أشعلت الضوء ووقفت عند الباب. هزت رأسها باستياء كي تنفض شعرةً عن وجهها. جلستُ مباشرة على حافة السرير ووضعت يدي على ركبتي حيث كانت كفّها «هل هذا ما قاله لك حين كنتما تلعبان البلياردو؟»

«شاهدته يلعب فقط.»

قالت جولي: «عثر على المفتاح ونزل كي يُلقي نظرة.»

«كان يجب أن تمنعيه.» هزت رأسها. كان من غير المعتاد بالنسبة لها أن تتوسّل، فصوتها غدا غير مألوف لي.

«أخذ المفتاح فحسب. لا يوجد شيء كي يراه هناك.»

قلت: «لقد غضبتِ حيال ذلك والآن يريد أن يعرف لماذا؟»

هذه مُجادلة ستنتهي بفوزي على جولي لا شكّ. بدأت أصدر إيقاعاً بيدي على ركبتيّ ولمدّة وجيزة شممتُ رائحة العفونة الحلوة.

قالت جولي فجأة: «لتعلم أنني لم أنم معه ولم يحدث أي شيء من ذاك القبيل.»

واصلتُ القرع ولم أرفع نظري. ثم مبتهجاً توقفت وقلت: «وماذا يعني هذا؟» لكن جولي كانت قد غادرت الغرفة.

متّكئاً إلى الطاولة أمسكت مريلة توم وشددتهُ نحوي. أطلق أنيناً خفيفاً ثم صرخة. قطعت جولي محادثتها وحاولتُ أن تفك أصابعي. نهضت سو.

صاحت جولي: «ما الذي تفعله؟ اتركه.» كنت قد سحبت توم مسافة جيدة على الطاولة حين أفلتّه فسقط عائداً إلى ذراعيْ جولي.

قلت: «كنت سأمسح فمه بما أنك كنتِ مشغولة في الحديث.» خبأ توم وجهه في حضن جولي وبدأ يبكي، في محاكاة جيدة لعويل طفل.

صاحت سو: «لماذا لا تترك الناس وحدهم؟ ما

مشكلتك؟»

تجولتُ في الفناء في الخارج. كان المطر قد توقف. وصارت الأبراج السكنيّة دميمة جرّاء بقع الماء الجديدة، لكن الأعشاب على الأرض خلف حديقتنا بدت أشد اخضراراً. سرتُ حول الحديقة على الطريق الذي أراد والدنا من الجميع أن يسلكوه، على طول الممرات الصغيرة، وعلى الدرجات إلى البركة. كان من الصعب العثور على الدرجات تحت الأعشاب والأشواك وكانت البركة قطعة مجعّدة من البلاستيك الأزرق المتسخ. تجمّع من مياه المطر في القاع القليل. وفيما كنت أسير حول البركة شعرت بشيء ناعم ينهار تحت قدمي. لقد دست على ضفدع. استلقى على جانبه وساقه الخلفية الطويلة عالقة في الجو، ترتعش في دوائر صغيرة. خرجتْ مادة لزجة خضراء من معدته والكيس الذي تحت ذقنه تضخّم ثم صغر بسرعة. بعين واحدة ناتئة حدق بي بطريقة حزينة تخلو من الاتهام. انحنيت إلى جانبه والتقطت حجراً كبيراً مسطحاً. بدا كأنه ينظر إليّ متوقعاً المساعدة. انتظرت آملاً أن ينتعش أو يموت فجأة. لكن كيس الهواء كان يمتلئ ويفرغ بسرعة أكبر وحاول دون أمل أن يستخدم ساقه الخلفية الأخرى كي يصحّح وضعه. قامت ساقاه الأماميتان بحركات سباحة في الجو. العين الضاربة إلى الصفرة حدقت في عيني.

«هذا يكفي»، قلتُ بصوت مرتفع ورميت الحجر المسطح بحدة على الرأس الصغيرة الخضراء. حين

رفعت الحجر كان جسم الضفدع ملتصقاً به ثم سقط على الأرض. رحت أبكي. عثرت على حجر آخر وحفرتُ خندقاً قصيراً عميقاً. حين دفعته بالعصا رأيت ساقه الأماميّة ترتجف. أهلت عليه بسرعة بعض التّراب وسوّيت القبر بقدمي.

سمعت وقع خُطا وصوت ديريك.

«ما مشكلتك؟» وقف بينما ساقاه منفرجتان بشكل واسع، وعلى كتفه معطف أبيض يحمله معلقاً بإصبع واحدة.

«لا شيء»، قلت. اقترب ديريك أكثر.

«ما الذي يوجد في الأرض؟»

«لا شيء» وبرأس حذائه الملمّع الأشبه بالوتد، حفر ديريك الأرض.

قلت: «إنه ضفدع ميت.»

لكن ديريك واصل الحفر حتى قلب جسم الضفدع المغطّى بالتراب.

قال: «انظر، إنه ليس ميتاً.» انخفض وضغط بكعب حذائه على ضفدعي ثم أهال عليه التّراب ثانية. فعل كل هذا بقدم واحدة ومن دون أن يزيح المعطف عن كتفه. فاحت منه رائحة عطر، من النوع الذي يستخدم بعد الحلاقة، أو ربما الكولونيا. سرتُ نحو أعلى الفناء باتجاه الممر الصغير الذي يلتف حول البقعة المحاطة بالصخور. تبعني ديريك مباشرة، وسرنا بشكل حلزوني، متجاوزين بعضنا في دوائر صغيرة محكمة كأطفال في

لعبة.

سألني: «جولي في الداخل، أليس كذلك؟»

قلت له إنها تنوّم توم. ثم حين كنا نتوازن قريبين جداً من بعضنا على القمة، قلت:

«إنه ينام في غرفتها الآن.»

هزّ ديريك رأسه بسرعة كما لو أنه يعرف مسبقاً وعقد ربطة عنقه.

حدّقنا في منزلنا. كنا قريبين جداً بحيث أنّه، حين يتحدّث، أشمّ نعناع أنفاسه.

«إنه غريب، أخوك الصغير، أليس كذلك؟ أعني إنّه يرتدي ملابس الفتيات.»

ابتسم لي وبدا كأنه توقع ابتسامتي أيضاً.

لكنني طويت ذراعي وقلت: «ما الغريب في هذا؟»

تسلق ديريك نازلاً من البقعة المحاطة بالصخور ومستخدماً الممرّات كدرجات. وحين وصل إلى القاع أمضى بعض الوقت في طيّ معطفه حول ذراعه. سعل وقال: «يمكن أن يؤثر هذا عليه في حياته فيما بعد، كما تعرف.»

نزلت من البقعة أيضاً وسرنا نحو المنزل.

سألته: «ما الذي تعنيه بهذا؟» كنّا نقف خارج باب المطبخ. حدّق ديريك عبر النافذة ولم يجب. كان باب غرفة الجلوس مفتوحاً واستطعنا أن نرى سو جالسة وحدها تقرأ مجلة.

فجأة سأل ديريك: «متى توفي والداك بالضبط؟»

«منذ وقت طويل»، قلت وفتحت باب المطبخ. أمسك ديريك بذراعي.

قال: «انتظر. جولي قالت إنهما توفياً مؤخراً.» نادت سو اسمي من غرفة الجلوس. حرّرت يدي ودخلت. همس ديريك خلفي كي أرجع ثم سمعته يمسح قدميه بعناية قبل أن يدخل المطبخ.

حالما دخل ديريك الغرفة أسقطت سو مجلّتها وركضت إلى المطبخ كي تُعدّ شايًا. كانت تعامله كنجم سينمائيّ. سار حاملاً معطفه مطوياً في مربع أنيق باحثاً عن مكان يضعه فيه، بينما سو تراقبه من المدخل كأرنب خائف. جلستُ ونظرتُ إلى مجلة سو. وضع ديريك معطفه على الأرض قرب كرسيٍّ جلس عليه أيضاً. قالت سو من المطبخ: «جولي في الطابق العلوي مع توم.» كان صوتها مرتجفاً.

«سأنتظر هنا إذاً»، صاح ديريك. وضع رِجلاً فوق أخرى وبدأ يشد كُمّيه فبرزا على مسافة مناسبة من تحت بذلته. قلبتُ صفحات المجلة دون أن أقرأ أي شيء. حين أخذ ديريك فنجان الشاي من سو قال: «شكراً لك يا سوزان»، بصوت مضحك، فضحكت، وجلست بعيداً عنه قدْر الإمكان. وبينما كان يحرّك شايه نظر مباشرة عبري وقال: «ثمة رائحة عجيبة هنا. هل لاحظتم ذلك؟»

هززت رأسي لكنني شعرت أن وجهي احمرّ. راقبني ديريك وارتشف شايه. رفع رأسه وتشمّم.

قال: «إنها ليست رائحة قوية لكنها غريبة جداً.»
وقفت سو وبدأت تتحدّث بسرعة.
«إنه مصرف المياه خارج المطبخ. إنه ينسدّ بسهولة في الصيف... كما تعرف...» وبعد وقفة قالت ثانية: «إنه المصرف.»
هز ديريك رأسه وهي تتحدث ونظر إليَّ. عادت إلى كرسيها ولوقت طويل بعد هذا لم يتحدث أحد.
لم يسمع أي منا جولي وهي تدخل الغرفة، وحين تحدّثت أجفل ديريك.
قالت بنعومة: «الجميع هادئون.»
نهض ديريك مستقيماً كجندي وقال بلباقة شديدة: «مساء الخير يا جولي.»
ضحكت. كانت جولي ترتدي التنورة المخمليّة وربطَت شعرها إلى الخلف بشريطة بيضاء.
قال ديريك: «كنا نتحدث عن المصرف»، وبحركة متصلبة خفيفة من يده حاول أن يوجه جولي إلى كرسيه. لكنها جاءت واستقرت على ذراع كرسيي أنا.
«المصرف؟» قالت كما لو لنفسها، لكنها لم تبد أنها تريد أن تعرف المزيد.
قال ديريك: «وكيف حالك؟»
ضحكت ثانية واستدرنا جميعاً كي ننظر إليها. أشارت جولي إلى معطف ديريك.
«لماذا لا تعلقه قبل أن يدوس عليه أحد ما؟»
رفع ديريك معطفه إلى حضنه ودلكه.

«قطّة ظريفة» قال، ولم يضحك أحد. سألتُ سو جولي إن كان توم نائماً.

«مطفأ كضوء»، قالت جولي. أخرج ديريك ساعته ونظر إليها. عرفنا كلنا ما الذي سيقوله.

«الوقت مازال باكراً بالنسبة لتوم، أليس كذلك؟»

في هذه المرة انتابت سو نوبة من الضحك. وضعت يديها فوق وجهها وأسرعت إلى المطبخ. سمعناها تفتح الباب وتخرج إلى الفناء. كانت جولي رابطة الجأش.

قالت: «في الحقيقة الوقت متأخر قليلاً عن المعتاد، أليس كذلك يا جاك؟» هززتُ رأسي رغم أنني لم أكن أعرف كم كان الوقت عندئذ.

لعبت جولي بشعري.

قالت لديريك: «ألم تلاحظ اختلافاً فيه؟»

قال على الفور: «أنظف وأذكى.» ثم وجّه كلامه لي: «تجذب السيّدات الآن، أليس كذلك؟»

أراحت جولي يدها على رأسي.

قالت: «آه، كلا. إننا لا نقوم بأيّ من هذا هنا.»

ضحك ديريك وأخرج علبة سجائره. حين قدّم واحدة لجولي رفضَت. بقيتُ هادئاً جداً لأنني لم أردها أن تحرّك يدها. في الوقت نفسه أحسست أنني بدوت أحمقَ لديريك. جلس من جديد على كرسيه ودخن سيجارته بينما يراقبنا طيلة الوقت. سمعنا سو تفتح الباب الخلفي لكنها بقيت في المطبخ. فجأة ابتسم ديريك وتساءلت إن كانت جولي تبتسم خلفي أيضاً.

وقفا في الوقت نفسه دون أن يتحدثا. قبل أن ترفع يدها عن شعري مسّدته جولي تمسيدة خفيفة.

حالما صعدا إلى الطابق العلوي عادت سو وجلست على حافة كرسي ديريك. ضحكت بعصبية وقالت: «أعرف ما هي الرائحة.»

«إنها ليست مني.»

قادتني إلى المطبخ وفتحت باب القبو. كانت بالطبع الرائحة نفسها، عرفت هذا في الحال لكنها تغيرت وأصبحت قوية. كانت منفصلة عني الآن. هناك شيء ما عذب وراء هذه الرائحة أو في تضاعيفها، رائحة أقوى وأكثر طراوة. كانت مثل إصبع غليظة تندفع في حنجرتي. كانت تصعد إلى الأعلى على الدرجات الإسمنتية من الظلمة. تنفستُ من فمي.

قالت سو: «تابع، انزل. تعرف ما هي.» أشعلت الضوء ودفعتني من أسفل ظهري.

قلت: «فقط إذا نزلتِ أيضاً.»

كان هناك صوت حفيف من مكان ما على طول الممر سُمعَ من قاع الدرج إلى نهاية الغرفة. سارت سو إلى الخلف نحو المطبخ والتقطت مشعل لعبة بلاستيكية ينتمي لتوم. كان على شكل سمكة. الضوء يخرج من فمها لكنه ضعيف جداً.

قلت: «ثمة كثير من الضوء. لا نحتاج إلى هذا.»

لكنها كانت تدفعني من الظهر به.

همست: «تابع وستشاهد.»

عند قدم السلم توقفنا كي نشعل مجموعة أخرى من الأضواء. وضعتُ منديلاً على أنفها وغطيتُ وجهي بالجزء السفلي من قميصي. كان الباب في نهاية الممر نصف مفتوح. ومن هناك سمعنا صوت الحفيف ثانية.

قالت سو: «جرذان.» حين وصلنا ساد الصمت فجأة في الغرفة وتوقفت.

«ادفع»، قالت سو من خلال منديلها.

لم أتحرك، لكن الباب كان يُفتح بنفسه الآن. صرختُ وخطوت إلى الخلف ورأيت أن أختي تضغط بقدمها قرب المفصل. بدا الصندوق كأنه رُفس. كان وسطه ناتئاً إلى الخارج. كُسر سطح الإسمنت بشق ضخم في بعض المواضع بعرض إنش ونصف. أرادتني سو أن أنظر إلى الداخل. وضعتُ المشعل في يدي وأشارت وقالت شيئاً ما لم أستطع سماعه. حين وضعتُ الضوء فوق الشق تذكرتُ وقتاً طار فيه القائد هنت وطاقمه على علو منخفض عبر سطح كوكب مجهول. آلاف الأميال من البراري المسطّحة المتصلّبة لا يكسرها إلا صدوع كبيرة سببتها الزلازل. ما من تلّ أو شجرة أو منزل، ولا ماء. لم تكن هناك ريح لأنه لم يكن هناك هواء. طاروا بعيداً في الفضاء دون هبوط ولم يتحدّث أحد طيلة ساعات.

كشفت سو عن فمها وهمست بحدّة: «ماذا تنتظر؟»

انحنيتُ فوق الصّدع، في نقطته الأوسع، وقرّبت المشعل. رأيت سطحاً ملتفًّا رماديًّا ضاربًا إلى الصُّفرة. حول الحافة كان هناك شيء أسود وبال. حين حدقت

بدا السطح نفسه بعض الوقت كوجه: عينٌ وجزء من أنف وفم أسود. انحلّت الصورة فرأيت السّطوح الملتفّة مرّة أخرى. اعتقدت أنني سأسقط فوق القبر وأعطيت المشعل لسو. لكن الشعور مرّ وأنا أراقبها تنحني فوق الصندوق. ذهبنا إلى الممرّ وأغلقنا الباب وراءنا.

قالت سو: «هل رأيت؟ الغطاء كله متصدّع وتستطيع أن ترى ثوب نومها في الأسفل.» كنا مهتاجين لحظةً كما لو أننا اكتشفنا أن أمّنا ما تزال حيّة في الحقيقة. فقد شاهدناها في ثوب نومها تماماً كما كانت.

فيما كنا نصعد الدرج قلت: «إن الرائحة ليست سيئة جداً حالما تعتادين عليها.»

أطلقتْ نصف ضحكة وبكت نصف بكاء وألقت المشعل. خلفنا استطعنا سماع الجرذان مرة أخرى. أخذتْ نفساً عميقاً وانحنت كي تلتقط المشعل. حين انتصبت قالت: «يجب أن نحضر مزيدًا من الإسمنت.» وكانت صوتها رزينًا.

على قمّة الدرج التقينا ديريك. من فوق كتفه استطعت رؤية جولي وسط المطبخ. سدّ ديريك طريقنا خارج القبو.

قال بطريقة وديّة: «حسناً، لستم جيدين في الحفاظ على الأسرار، ما الذي لديكم هناك في الأسفل والذي تفوح منه رائحة طيبة؟»

تجاوزناه دون أن نجيب. وقفتْ سو عند المغسلة وشربت الماء بكوب شاي. صوت السائل الذي تدفق عبر

حنجرتها كان قوياً جداً.

قلت: «لا شأن لك بهذا.»

التفت إلى جولي آملاً أنها ستفكر بشيء تقوله. سارت إلى حيث يقف ديريك في مدخل القبو وحاولَت أن تشدّه بلطفٍ من ذراعه.

قالت: «لنقفل الباب، إنّ هذه الرائحة تثير أعصابي.»

لكن ديريك سحب ذراعه وقال مرّة أخرى بطريقة وديّة: «لكن لم تخبروني ما هي بعد؟»

نفض ذراع سترته حيث شدت جولي وابتسم لنا. «أنا فضولي جداً كما ترون.» راقبناه يستدير وينزل الدرج. سمعنا وقع خطواته في الأسفل وهو يبحث عن ضوء المصباح ويواصل إلى الغرفة في النهاية. ثم تبعناه إلى الأسفل، أولاً جولي ثم سو وأنا.

أخرج ديريك منديلاً أزرق باهتاً من جيبه الصّدري، هزّه نحو الخارج وحمله قُربَ وجهه. كنت مصمّمًا ألا أستخدم أي شيء وأخذت أنفاساً سريعة من بين أسناني. ضرب ديريك الصندوق بحذائه. وقفت أنا وأختاي في دائرة خلفه كما لو أنّ طقساً مهمًّا على وشك أن يحدث. تعقّب بأصابعه خطّ الصّدع وحدّق فيه.

«إن كل ما هو هناك متعفّن في الحقيقة.»

«إنه كلب ميت»، قالت جولي فجأة وببساطة. «كلب جاك.»

ابتسم ديريك.

قلت: «لقد وعدتِني أنّك لن تخبري أحدًا».

هزّت جولي كتفيها وقالت: «لا يهمّ الآن.»
وفيما كان ديريك منحنياً فوق الصندوق تابعت جولي: «إنها فكرته عن القبر. وضع كلبته هناك حين نفقت وغطّاها كلها بالإسمنت.» كسر ديريك قطعة من الإسمنت وقذفها بيده.
قال: «لم تقم بالمزج جيداً وهذا الصندوق لا يتحمّل هذا الوزن كلّه.»
قالت جولي لي: «انتشرت الرائحة في أرجاء المنزل كلّها، من الأفضل أن تفعل شيئاً حيال هذا.» مسح ديريك يديه بعناية بالمنديل.
قال: «أعتقد أنه تجب إعادة دفنها في الفناء، ربما. إلى جانب الضفدع.» ذهبت إلى الصندوق ورفسته بلطف كما فعل ديريك.
قلت بحزم: «لا أريد نقلها. ليس بعد كل هذا العمل.»
قاد ديريك طريقنا خارج القبو. حين وصلنا إلى الأعلى دخلنا جميعاً إلى غرفة الجلوس. سألني عن اسم كلبتي فقلت دون أن أفكر إن اسمها كوزمو.
تقدّم ووضع يده على كتفي وقال: «يجب أن نسدّ الشق بالإسمنت إذاً ونأمل أن يتماسك الصندوق.»
جلسنا بقيّة المساء دون أن نفعل شيئاً. تحدّث ديريك عن لعب السنوكر. وبعد وقت طويل وفيما كنت ذاهبًا إلى غرفة نومي قال: «سأريك كيف تصنع مزيجًا إسمنتيًّا ملائمًا هذه المرّة.» وعلى الدرج سمعت جولي تقول: «من الأفضل أن نتركه يقوم بالأمر. يُحبّ ألّا تُريه

ما يجب أن يفعله.»

قال ديريك شيئاً لم أتمكن من سماعه ثم ضحك وحده وقتًا طويلًا.

الفصل العاشر

عاد الطقس الحار. وفي الصباح كانت جولي تتشمس في البقعة المحاطة بالصّخور. هذه المرة دون مذياعها. أمّا توم، الذي كان يرتدي ثيابه الخاصّة كولد لأوّل مرّة منذ عدّة أيام، فقد كان يلعب في الحديقة مع صديقه من الأبراج السكنيّة. كلما رغب توم أن يفعل شيئاً جريئاً من وجهة نظره، مثل القفز فوق حجرٍ ما، صاح بجولي أن تراقبه.

«جولي انظري! جولي شاهدي!» كنت أسمع صوته طيلة الصباح. ذهبت كي أراقبهما من المطبخ. جولي تستلقي على منشفة زرقاء برّاقة وتتجاهل توم. كانت بشرتها داكنة فاعتقدتُ أنها بعد يوم آخر ستصبح سوداء. عدّة دبابير في المطبخ تتغذّى من القمامة المتناثرة على الأرض. وغفت سحابة من الذباب في الخارج على علب القمامة الطافحة التي لم تُفرَّغ لأسابيع. اعتقدنا أنه ربما كان هناك إضراب ما، لكننا لم نسمع أي شيء. ذابت علبة زبدة في البركة. وبينما كنت أراقب من النافذة غمست يدي فيها ولحستها. كان الجو حاراً جداً بحيث لا يمكن تنظيف المطبخ. جاءت سو وأخبرتني أن الحرارة حطمت الرقم القياسي، وسمعت في المذياع أنه اليوم الأكثر حرارة منذ عام ١٩٠٠!

«يجب أن تأخذ جولي حذرها»، قالت سو وذهبت إلى الخارج كي تحذرها. لكن لم يبد أن الحرارة قد مسّت أياً من توم وصديقه وجولي. كانت تستلقي هادئة وكانا

يطاردان بعضهما حول الفناء ويصيحان بأسمائهما.
في أواخر النهار، سرتُ إلى الدكاكين مع جولي لشراء كيس من الإسمنت. جاء توم أيضاً. ظلّ قريباً من جولي ممسكًا طرفَ تنورتها البيضاء. وفي الطريق اضطررت للوقوف في ظل موقف حافلةٍ كي أتّقي الحرارة. وقفتْ جولي أمامي في ضوء الشّمس محاولةً تهوية المكان.
قالت: «ما مشكلتك؟ تبدو ضعيفاً جداً. ما الذي كنت تفعله بنفسك؟» نظرتْ في عيني وضحكنا معاً. خارج أحد الدكاكين رأينا انعكاساتنا في لوح زجاج الواجهة. أدخلت جولي ذراعها تحت ذراعي وأغلقتها، ثم قالت: «انظر كم أنت شاحب.» نزعتُ يدي. وبينما كنا ندخل الدكّان تحدثت معي بحزم كأنني طفل.
«في الحقيقة يجب أن تخرج إلى الشمس. سينفعك ذلك كثيرًا.» في طريق العودة إلى المنزل تذكرت أنه منذ مدة ليست طويلة كانت جولي لا تتكلم إلا عندما يتم التحدث إليها أوّلًا. أما الآن فهي تتحدث بإثارة مع توم عن خِيَم السّيرك، وتوقفتْ مرّة وانحنت قربه، وبمنديلٍ ورقيّ مسحت شفتيه ونظفتهما من البوظة والمخاط.
حين وصلنا إلى بوابتنا الأمامية قرّرتُ ألّا أعود إلى الداخل. أخذَت جولي كيس الإسمنت الذي يبلغ وزنه عشرة أرطال مني وقالت: «هذا جيّد، ابْق في الشمس.»
حين سرتُ مسافةً في شارعنا لاحظت فجأة كم بدا مختلفاً. لم يكن شارعاً بقدر ما كان طريقاً عبر فناء

خردوات فارغ تماماً. هناك منزلان آخران فقط منفصلان عن منزلنا. وكانت أمامي مجموعة من العمّال، تتوقّف قرب شاحنة بناء استعداداً للعودة إلى المنزل. أُدير مُحرّك الشاحنة حين حاذيتها. وجدت ثلاثة رجال يقفون حوض الشّاحنة، ممسكين بالمسند الذي يعلو قُمرة السائق. رآني أحدهم فأمال رأسه جانبيًّا ليحيّيني. ثم، فيما كانت الشاحنة تعلو حافة رصيفٍ مرتفعة لحظةً، أشار الرّجل في اتجاه بيتنا وهزّ كتفيه في استهجان. كان كل ما تُرك من المباني هي الألواح الكبيرة للأساسات. ذهبت ووقفت على إحداها. في اللوح أخاديد حيث كانت الجدران، وأعشاب بدت مثل شتلات خسّ صغيرة نمت في الأخاديد. سرتُ على طول خطوط الجدران واضعاً قدماً أمام الأخرى، وفكّرت كم هو غريب أن عائلة بأكملها تستطيع العيش داخل هذا المستطيل من الإسمنت. من الصّعب القول الآن إن كان هذا هو البيت الذي زرته من قبل. لا يوجد شيء يمكن الاعتماد عليه للتفريق بين البيوت. خلعت قميصي وفرشته على الأرض في وسط الغرفة الأكبر. استلقيت على ظهري ومددت يديَّ على الأرض بحيث أن ضوء الشمس غمر أصابعي. وعلى الفور شعرت بالاختناق من الحرارة ووخزني جسدي من التعرّق. لكنني صمّمت على البقاء وحلمت أحلام يقظة.

حين استيقظتُ تساءلتُ لماذا لستُ في سريري. ارتجفت وتحسّست حولي بحثاً عن الأغطية. حين

وقفت بدأ رأسي يؤلمني. التقطت قميصي وسرت إلى البيت ببطء. توقّفت مرّة كي أعبّر عن إعجابي باللون الدمويّ الأحمر لصدري وذراعيّ، والذي راحت تعمّقه الشّمسُ الغاربة. كانت سيارة ديريك مركونة خارج منزلنا. حين دخلت المطبخ شاهدت باب القبو مفتوحاً وسمعت أصواتاً وضجيج كشْط.

كان ديريك قد طوى كُمّيه، ويقوم بوضع الإسمنت الممزوج في الشقّ بالمجرفة. وقفت جولي تراقبه ويداها على ردفيها.

«نقوم بأعمالك المنزليّة عنك»، قال ديريك حين دخلت، لكنه بدا مستمتعاً على ما يبدو. بدت جولي مسرورة لرؤيتي كما لو أنني سافرت في البحر لسنوات.

قالت: «انظر إليه. لقد التقطت الأشعّة جيّدًا. تبدو جميلاً، ألا يبدو جميلاً؟»

نخر ديريك ومال على عمله. خفّت الرائحة. صفر ديريك بنعومة عبر أسنانه وهو ينعّم الإسمنت. وبينما كان يدير ظهره لنا غمزتْني جولي وتظاهرتُ أنني على وشك أن أرفس ديريك في ظهره.

قال ديريك وقد أحسّ بشيء يجري وراءه دون أن يستدير: «هل من خطب؟»

«كلا، لا شيء»، قلنا معاً وبدأنا نضحك. جاء ديريك نحوي بالمجرفة. دُهشتُ لأنّه بدا متألّمًا.

قال: «من الأفضل أن تقوم بالعمل.»

قلت: «آه كلا، أنت أفضل مني بكثير في إنجازه.»

حاول ديريك أن يضع المجرفة في يدي.
قال: «إنه كلبك. إذا كان كلباً!»
قالت جولي بنعومة: «ديريك. من فضلك افعل هذا. قلتَ إنك ستفعل.» قادتْهُ إلى الصندوق. «إذا أصلحه جاك فإنه سيتشقّق ثانية وستنتشر الرائحة في الأمكنة جميعها.» هزّ ديريك كتفيه وشرع في العمل ثانية. ربتت جولي على كتفه والتقطت سترته المعلّقة على مسمار. طوتْها على ذراعها وربتت عليها أيضاً.
قالت: «قطّة ظريفة.»
هذه المرة تجاهل ديريك ضحكاتنا الخفيفة.
أنهى عمله ونهض. قالت جولي: «عمل جيّد!» انحنى لها ديريك قليلاً وحاول أن يمسك يدها. قلتُ شيئاً مشابهاً لكنه لم ينظر ناحيتي. وقفت أنا وجولي، في المطبخ، كي نساعد ديريك بينما يغسل يديه. قدّمتْ له جولي منشفة. وبينما كان يجفّف يديه حاول أن يسحبها نحوه. لكن جولي جاءت ووضعت يدها على كتفي وعبرت عن إعجابها بلون وجهي.
قالت: «تبدو أجمل بكثير، أليس كذلك؟»
كان ديريك يعقد ربطة عنقه بحركات سريعة وحادة.
بدت جولي كأنها تملك سيطرة كاملة على أمزجته. أصلح كُمَيه ومدّ يده إلى سترته.
قال: «يبدو لي وكأنّه أفرط في ذلك.»
مشى نحو الباب، واعتقدتُ لحظةً أنه سيغادر، لكنه انحنى والتقط كيس شاي قديماً عند زاوية الباب ورماه

في اتجاه سلّة المهملات. ملأتْ جولي الإبريق وتجوّلت في غرفة الجلوس بحثاً عن الفناجين.

حين بات الشاي جاهزًا شربناه واقفين في المطبخ. كان يرتدي بذلته واضعًا ربطة عنقه، فبات يشبه ذاته القديمة أكثر. وقف شديد الانتصاب، حاملاً كوبه بيد وصحن الفنجان في الأخرى.

طرح عليَّ أسئلة عن المدرسة والوظائف. ثم قال بحذر: «لا بد أنك كنت مرتبطاً جداً بذلك الكلب.»

هززت رأسي وانتظرتُ جولي كي تغيّر الموضوع.

قال ديريك: «متى نَفَق؟»

قالت: «كانت أنثى.»

ساد الصّمت ثم قال ديريك باستياء: «حسناً، متى نفقتْ؟»

«منذ شهرين تقريبًا.» التفت ديريك إلى جولي ونظر إليها متوسلاً. ابتسمت وملأت فنجانه. تحدث في الفراغ الذي بينها وبيني.

«أيّ نوع من الكلاب؟»

قالت جولي: «أنت تعرف، مزيج من الأشياء.»

أضفت: «لابرادور»، وتخيّلت لحظةً كما لو أن كلباً يرفع عينيه الغائصتين إلى عينيّ من مكان ما. هززت رأسي.

سأل ديريك: «هل تمانع الحديث عنها؟»

«كلا.»

«ما الذي خطر لك كي تدفن الكلبة هناك؟»

«كي أحفظها، مثل المصريين.»

هز ديريك رأسه بشكل مقتضب كما لو أنّ فهم كلّ شيء.

عندئذ فحسب دخل توم، ركض إلى جولي وتمسك بساقها. تبادلنا المواضع كي نجعل الدائرة أوسع. حاول ديريك أن يلمس رأس توم لكن توم دفع يده بعيداً وسقط بعض من شاي ديريك على الأرض.

حدّق في الشاي المندلق لحظة ثم قال: «هل أحببتَ كوزمو يا توم؟»

وهو ما يزال يمسك قدم جولي استند توم إلى الخلف كي ينظر إلى ديريك كما لو أن هذه نكتة جارية بينهما.

قالت له جولي بسرعة: «تتذكر كوزمو، كلبتنا.» هز توم رأسه. قال ديريك: «نعم كوزمو. هل كنت حزيناً حين ماتت؟»

ثانية تأرجح توم إلى الخلف وهذه المرة رفع نظره محدّقًا في أخته.

«لقد جلست في حضني وبكيت ألا تتذكر؟»

قال على نحو فاضح: «نعم.» راقبنا كلنا توم بتمعن.

«لقد بكيتُ، أليس كذلك؟» قال لجولي.

«هذا صحيح. وحملتك إلى السرير، ألا تتذكر؟»

أسند توم رأسه على بطن جولي وبدا مستغرقاً في التأمّل. وضعتْ جولي كوبها وقادت توم إلى الفناء وهي تتحرّق كي تبعد توم عن ديريك. وبينما كانا يتجاوزان الباب، قال توم بصوت مرتفع: «كلب!» وضحك بسخرية.

خشخش ديريك مفاتيح سيارته في جيبه. كانت جولي تسابق توم عبر الحديقة. وراقبنا كلانا من النافذة. بدت جميلة جدًّا، واستدارت كي تشجّع توم بحيث استأت من أن أشاطر ديريك رؤيتها. دون أن أستدير عن النافذة قال بحزن: «أتمنى أن تثقوا بي جميعاً أكثر من هذا بقليل.»

تثاءبتُ. لم نتحدث أنا وسو وجولي عن قصّة كلبنا معاً. ولم نتوخَّ الحذر مطلقاً من ديريك. وفي الغالب ما كان في القبو لم يبد واقعياً بما يكفي كي يتحول إلى سر يمكن الحفاظ عليه. وحين لا نكون في القبو وننظر إلى الصندوق يبدو الأمر كما لو أننا نائمون. أخرج ديريك ساعته. «عندي شَوط لعب. أراكم فيما بعد، في المساء ربما.»

سار إلى الخارج ونادى جولي التي قاطعت قليلاً لعبتها مع توم كي تلوح له وتنفخ له قبلة في الهواء. انتظر لحظة قبل أن يسير مبتعداً، لكنها كانت قد أدارت ظهرها.

ذهبتُ إلى غرفة نومي، خلعت حذائي وجواربي واستلقيت على السرير. من نافذتي استطعت أن أرى مربعاً واضحاً من السماء الزرقاء الشاحبة، لكنني لم أر غيمة واحدة. وبعد أقل من دقيقة نهضت جالساً وراحت أحدّق فيما حولي. على الأرض عُلَب كوكاكولا وملابس متّسخة ومغلّفات سمك ورقائق بطاطس وعدّة علّاقات معاطف سلكيّة، وصندوق يحوي ربطات مطاطيّة.

نهضتُ ونظرت إلى حيث كنت أستلقي، الطيّات والثنيات في الأغطية الرماديّة الضاربة إلى الصُّفرة، وبُقَع كبيرة لها حوافٌ واضحة. شعرت بالاختناق. كل شيء نظرت إليه ذكّرني بنفسي. فتحت أبواب خزانة ملابسي على مصراعيها ورميت فيها كل الحطام الذي كان على الأرض. سحبتُ الأغطية والبطانيات والمخدات عن سريري ووضعتها أيضاً في الداخل. انتزعت عن الجدار الصّور التي قصصْتها مرّة من المجلّات ومزّقتها. تحت السرير عثرت على صحون وأكواب يكسوها عفنٌ أخضر. جمعت كل الأشياء المبعثرة ووضعتها في الخزانة إلى أن صارت الغرفة عارية. نزعتُ حتى المصباح وغطاءه. ثم خلعتُ ثيابي أيضاً ورميتها وأوصدتُ الباب. كانت الغرفة فارغة كزنزانة. استلقيت على السرير وحدقت في بقعتِي من السّماء الصافية إلى أن غفوت.

كان الجو مظلماً وبارداً حين استيقظت. وذكرى مشوّشة عن النوم في البيت المهدّم ما تزال في خيالي. هل ما أزال هناك؟ كيف حدث واستلقيتُ عارياً على فرشة عارية؟ ليس عندي أدنى فكرة. كان هناك شخص يصرخ. هل كان أنا؟ نهضت على ركبتي كي أغلق النافذة وتذكرت فجأة أن أمي ماتت منذ وقت طويل.

بدأ كل شيء يتّضح على الفو، فاستلقيت مرتجفاً وأصغيت. كان البكاء ناعماً ومتواصلاً كأنين، وجاء من الغرفة التالية. لقد كان مُهدّئاً لي بعض الشيء. أصغيت

وهلة للصوت فحسب. لم أشعر بفضول يتجاوز ذلك. توقّفت عن الارتجاف وأغمضت عيني، وعلى الفور، كما لو أن عرْضاً تم تأجيله حتى أستقرّ مكاني، شاهدت مجموعة من الصّور الحَيّة. فتحتُ عينيَّ لحظةً وشاهدتُ الصّور نفسها مطبوعة في الظّلام. ثم تساءلتُ لماذا كنتُ بحاجة ماسّة إلى النّوم؟ رأيتُ شاطئًا مزدحمًا بالنّاس في ظهيرةٍ قائظة. وقد حان وقت العودة إلى المنزل. كان أبي وأمي يسيران أمامي حاملين كرسيين مطويين وكومة من المناشف. لم أستطع أن أواكبهما. آلمتْ الحصى الكبيرة والمستديرة قدمي. في يدي عصا تحمل في رأسها طاحونة هواء ورقيّة. بكيت لأنني كنت متعباً وأردت أن أُحمَل. توقف والداي وانتظرا. لكن حين كنت على بُعد بضعة أقدام منهما استدارا وواصلا السير. صار بكائي نحيباً طويلاً بحيث أوقف أطفال آخرون ما يفعلونه كي ينظروا إلي. أفلتت طاحونة الهواء الورقيّة، وحين التقطها أحد ما وأعادها إليّ، هززت رأسي وانتحبت بصوت أكثر ارتفاعاً. أعطت أمي كرسيّها المطوي لأبي وسارت نحوي. حين حملتْني وجدت نفسي أنظر إلى الخلف من فوق كتفها إلى فتاة حملت طاحونتي الهوائيّة وراحت تحدّق فيّ. قلَب النسيم الشفرات الورقيّة اللامعة، فأرادت أن تعيدها إليّ بلهفة لكنها بعيدة خلفنا، ونحن الآن على الرصيف، وخطوة أمي رتيبة. واصلت البكاء لكن أمي بدت كأنها لم تسمع. هذه المرّة فتحت عيني واستيقظت بشكل كامل. وبما

أن النوافذ مغلقة فقد كانت غرفتي الصغيرة حارة ودون هواء. أمّا الغرفة المجاورة فقد كان توم يبكي هناك. نهضتُ لكنني سقطتُ دائخاً على خزانة الثياب. فتحتها وتحسست باحثاً عن ثيابي. تدحرج المصباح إلى الخارج وسقط على الأرض. شتمتُ بهمس مرتفع نوعًا ما. شعرت أنني مختنق جداً من الظلمة والافتقار إلى الهواء بحيث لم أستطع متابعة البحث. تقدّمتُ نحو الباب بوجهٍ متجهّم ويدين ممدودتين. وقفت على فسحة الدرج منتظراً تكيّف عينيّ مع الضوء. في الأسفل كانت جولي وسو تتحدثان. حين سمعا صوت بابي وهو يُفتح توقّف توم عن البكاء في الغرفة المجاورة، لكنه شرع في بُكاء قسريّ غير مُقنع. لم تكترث به جولي في البداية. رفس الشراشف والأغطية إلى أسفل السرير واستلقى على ظهره عارياً ناظراً إلى السقف. كان الصوت الذي صدر عنه مثل نوع بليد من الغناء. بدا أحياناً كأنه ينسى أنه يبكي ويصمت، ثم يتذكّر ويبدأ ثانية بصوت أكثر ارتفاعاً. وقفت خلفه وأنا أصغي حوالي خمس دقائق. كان يضع ذراعاً خلف رأسه، وباليد الأخرى يلعب بعضوه ويشدّه ويدوّره بين الوسطى والإبهام. قلت له: «حذار!» أدار توم رأسه إلى الخلف ونظر إليَّ دون اندهاش. ثم عادت تحديقته إلى السّقف واستأنف بكاءه. اتكأت على حاجز سريره وقلت بفظاظة: «ما مشكلتك؟ لماذا لا تسكت؟» صار بكاء توم حقيقيًا الآن مصدرًا صوت قوقأة، بينما الدموع تسّقاط

على الشراشف قرب رأسه. قلتُ: «انتظر»، وحاولتُ أن أخفض حاجز السرير. لم أستطع أن أرى في الظلمة كيف أحرّر الحاجز. سحب أخي ملء رئتيه من الهواء وصرخ. كان من الصعب التركيز، خبطتُ الحاجز بقبضتيّ، وأمسكت القضبان العموديّة وهززتُها إلى أن اهتزَّ السرير كله. بدأ توم يضحك، ثم أفلت شيء ما فانزلق الحاجز.

نادى بصوته الطفولي: «ثانية! أريدك أن تفعل ذلك ثانية!» جلست على طرف السرير فوق كومة من الأغطية والبطانيات. حدّق كل واحد منّا في الآخر، ثم قال في الحال بصوتٍ طبيعيّ «لماذا لا ترتدي أيّ ثياب؟»

قلت: «لأن الجور حار جداً.» فهزّ رأسه.

«أنا أيضاً أعاني من الحرّ». استلقى إلى الخلف وذراعاه مطويّتان تحت رأسه وبدا الآن كأنه ولدٌ يتشمّس أكثر ممّا بدا طفلاً.

«ألهذا كنت تبكي؟ لأنك تعاني من الحرّ؟»

فكر لحظة قبل أن يهز رأسه.

قلت: «البكاء يزيدك حَرّاً.»

«أردتُ أن تصعد جولي. قالت إنها ستصعد وتراني.»

«لماذا تريدها أن تصعد؟»

«لأني أردتها أن تفعل.»

«لكن لماذا؟» طقطق توم لسانه من الغضب.

«لأنني كنت أريدها.»

طويتُ ذراعي. شعرتُ بميل إلى استجوابه.
«هل تذكر أمنا؟» فتح فمه قليلاً وهز رأسه. «ألا تريدها؟»
«إنها ميتة»، قال توم باستياء. تمدّدتُ في سرير الأطفال. تحرك توم كي يفسح مجالاً لساقيَّ.
قلت: «رغم أنها ميتة، ألا ترغب في أن تصعد وتراك بدلاً من جولي؟»
تباهى توم: «لقد كنتُ في غرفتها. أعرف أين تضع جولي المفتاح.»
بالكاد يستدعي ذهني غرفة نومها المقفلة، فحين أفكر في أمّنا فإنني أفكّر في القبو. قلت: «ماذا تفعلون هناك؟»
«لا شيء.»
«ماذا يوجد هناك؟» راح صوت توم يمتزج بنبرة انتحاب خفيفة.
«لقد أزاحت جولي كل أغراض أمي.» حدق توم فيّ كما لو أن سؤالي ليس له معنى. سألتُ: «هل لعبْت بأغراضها؟»
هز توم رأسه وزم شفتيه محاكياً جولي.
«قمنا بارتداء ملابس وأشياء من هذا القبيل.»
«أنت وجولي؟» ضحك توم.
«أنا ومايكل أيها الغبي!» مايكل هو صديق توم من الأبراج السكنيّة.
«ارتديتما ملابس أمي؟»

«أحياناً كنّا الأم والأب، وأحياناً كنّا جولي وأنت، وأحياناً كنّا جولي وديريك.»

«ماذا فعلتما حين كنتما أنا وجولي؟» لم يعن سؤالي شيئاً لتوم بعض الوقت. «أعني ماذا فعلتما؟»

قال توم بغموض: «لعبنا فقط...»

وبسبب طريقة سقوط الضوء على وجهه، ولأن لديه أسراراً، بدا توم كرجل عجوز حكيم وصغير يستلقي عند قدمي. تساءلت إن كان يؤمن بالفردوس. قلت: «هل تعرف أين أمنا الآن؟»

حدّق توم في السّقف وقال: «في القبو.»

همست: «ما الذي تعنيه؟»

«في القبو، في ذلك الصندوق، تحت كل تلك المادة.»

«من قال لك ذلك؟»

«ديريك قال هذا. قال إنك وضعتها هناك.» انقلب توم على جانبه ووضع إبهامه لا في فمه، بل قربه. هززْت كاحله.

«متى قال لك هذا؟» هز توم رأسه. لا يفرّق بين زمن الأحداث أكانت البارحة أم الأسبوع الماضي. «ماذا قال ديريك أيضاً؟»

انتصب توم جالساً وقال: «قال إنك تواصل التظاهر بأنه كلب.» ضحك. «كلب!»

غطّى توم نفسه بطرف الشرشف وانقلب على جانبه ثانية. وضع رأس إبهامه بين شفتيه لكن عيناه بقيتا مفتوحتين. وضعتُ وسادة خلف ظهري. أحببت المكوث

في سرير توم. كل ما سمعته توًّا لم يهمني. شعرت برغبة في رفع حاجز السّرير والبقاء فيه طيلة الليل. آخر مرّة نمت فيها هنا، كان مُعتنىً به جيّدًا وكان ومرتّبًا. كنت، في الرابعة من عمري، أعتقد أنّ أمي هي التي تبتكر الأحلام التي أحلمها في الليل. وهكذا إذا سألتني في الصباح، كما كانت تفعل أحيانًا، ما الذي حلمت به، فذاك من أجل أن تعرف هل سأروي له ما حدث بصدق أم لا. أعطيت سرير الأطفال لسو قبل وقت طويل على ذلك، حين كنت في الثانية من عمري، لكن بينما أستلقي فيه الآن بدا مألوفاً لي: رائحته المالحة الرّطبة، وتتابع القضبان، ومتعة أن تكون سجيناً في مُحيطٍ حميم، ذاك كلّه أراحني. مرّ وقت طويل. انفتحت عينا توم لحظات ثم انطبقتا ثانية. مَصّ إبهامه بعُمق داخل فمه. لم أرده أن ينام بعد.

همست: «توم، لماذا لا تريد أن تكون طفلاً؟»

تكلّم وفي صوته نبرة من هو على وشك البكاء.

«أنت تحطّمني.» رفسني بوهنٍ من تحت الأغطية. «أنت تحطّمني وهذا سريري... أنت...» ثم تلاشى صوته وانطبقت عيناه بشدّة فيما انتظمت أنفاسه في إيقاع عميق. راقبته دقيقةً حتى دفعني صوتٌ ضعيفٌ قادم من الرّدهة إلى الانتباه إلى أنني أنا أيضاً كنت مُرَاقباً.

«انظروا إلى هذا»، همست جولي حين عبرت الغرفة. «فقط انظر إلى نفسك!» ثمّ قرصت كتفي ووضعت

يدها على فمها كي تخنق ضحكتها.
«طفلان عاريان!» رفعت طرف السرير وثبّتته. ثم، وبينما تتّكئ على السرير، ابتسمتْ لي مسرورة. كانت قد رفعت شعرها، بينما خصلٌ دقيقة وطويلة منه أفلتت منه مجعّدة إلى الأسفل عند أذنيها اللتين تدلت منهما أقراط من الكُرات الزجاجيّة الملوّنة اللامعة. «أنت، أيّها العذب الصغير!»
لعبَتْ بشعري. كانت بلوزتها القطنية البيضاء محلولة الأزرار نزولًا حتى انتفاخ ثدييها وبروز بشرتها البنيّة الفاتحة. زمّت شفتيها، لكن ابتسامتها واصلت تفريقهما. الرائحة العذبة والحادة لعطرها عبقت حولي فجلستُ هناك أبتسم بحماقة محدقاً في عينيها. وكي أتندّر قليلًا، وضعتُ إبهامي في فمي ورفعت يدي إلى وجهي. شجّعتني: «تابع، لا تخف!» أعادني الطعم التافه لجلدي إلى رُشدي.
«سأخرج،» قلت، وبينما هممتُ بالجلوس أشارت جولي من خلال القضبان.
«انظر! ما أكبره!» ثم ضحكتْ، ومدّت يدها كأنها ستمسك بي.
تسلّقتُ حاجزَ سرير الأطفال لأخرج منه. كانت جولي تغطّي توم بينما أسيرُ نحو الباب نادماً أنني أنهيت مشهدنا. لكن جولي أمسكتني من ذراعي وأعادتني إلى سريرها.
قالت: «لا تذهب الآن، أريد أن أتحدث معك.»

جلسنا أحدنا يواجه الآخر. بدت عينا جولي وحشيّتين ومتوهّجتين. قالت: «تبدو جميلاً دون ملابسك، قرنفليًّا وأبيض كالبوظة.» لمسَت ذراعي الذي سفعته الشمس. «إنه متقرّح.»

هززت رأسي وقلت: «ماذا عن ثيابك؟»

فتعرّت بخفّة. وحين باتت ثيابها بيننا في كومة صغيرة على السرير، هزّت رأسها نحو توم وقالت: «ما رأيك؟ ألا تظن أنّه سعيد؟»

قلت «أجل» وأخبرتها ما قاله لي. فتحت جولي فمها بشكل واسع متظاهرة بالدهشة.

«عرف ديريك منذ فترة طويلة. لم نكن جيدين في الحفاظ على السر. ما يزعجه هو أننا لا نطلعه عليه.» ضحكت وهي تغطّي فمها «يشعر أنه منبوذ حين نواصل القول له إنه كلب!» ثمّ اقتربت مني أكثر وطوّقت جسدي بذراعيها. «يريد أن يكون أحد أعضاء الأسرة، يريد أن يكون الأب الأكبر الذكيّ، إنه يثير أعصابي.»

لمستُ ذراعها كما لمستني قبلًا. قلت: «بما أنه يعرف فعلًا، فإنّه يمكننا أن نكشف له الأمر كلّه. أشعر أنني مجنون لمواصلتي الحديث عن ذلك الكلب.» هزّت جولي رأسها وشبكت أصابعها في أصابعي.

«يريد أن يتولى مسؤولية كل شيء. ويواصل الحديث عن الانتقال للعيش معنا، والقول...» أعادت كتفيها إلى الوراء فانتصب ظهرها وانتفخ صدرها أكثر «'ما تحتاجون إليه أنتم الأربعة هو الرّعاية'.» أمسكتُ يد

جولي الأخرى وتحركنا بحيث جلسنا متلامسي الركبتين. من سرير الأطفال الذي كان مسنداً تماماً إلى سرير جولي، تمتم توم وهو نائم وبلع ريقه بصوت مرتفع. فراحت جولي تتكلّم بصوت مهموس: «يعيش مع أمّه في منزل صغير. ذهبتُ إلى هناك. تدعوه دودل وتجعله يغسل يديه قبل شُرب الشاي!» ثمّ حرّرت جولي يديها ووضعتهما على جانبي وجهي، وحدّقَت بين ساقيّ وهي تقول: «قالت لي إنها تكوي له خمسة عشر قميصاً في الأسبوع!»

فقلت لها: «ذاك كثير!» كانت جولي تضغط بكفّيها على وجنتيّ بحيث أنّ شفتيّ اندفعتا إلى الأمام كمنقار طائر. قالت: «اعتدتَ أن تبدو هكذا طيلة الوقت، أمّا الآن فإنك تبدو هكذا...» وأرخت قبضتها.

أردتُ أن نواصل الحديث. قلت: «لقد توقّفتِ عن الجري وقتًا طويلًا.»

مدّت جولي ساقًا ووضعتها فوق ركبتي. نظر كلانا إليها كما لو أنّها حيوان أليف. أمسكتُ قدمها بيديّ.

قالت جولي: «ربما سأمارس بعض الجري في الشتاء.»

«هل ستعودين إلى المدرسة الأسبوع القادم؟» هزّت رأسها.

«هل ستعود؟»

«كلا.»

ضممْنا بعضنا، وكانت أذرعنا وسيقاننا متشابكة بحيث سقطنا جانبيًا في السرير. استلقينا بينما ذراعًا كلّ منا

حول عنق الآخر، ووجهانا متقاربان. تحدّثنا وقتًا طويلًا عن أنفسنا.

قالت جولي: «مضحك أنني فقدت إحساسي بالوقت. أشعر كما لو أن حياتنا كلّها كانت على الدوام هكذا. لا أستطيع في الحقيقة أن أتذكّر كيف كان الأمر حين كانت أمنا على قيد الحياة، ولا أستطيع أن أتذكّر فعلًا كيف تغيّرت الأمور. كل شيء يبدو هادئاً وثابتاً ويجعلني أشعر أنني لا أخشى شيئًا.»

قلت: «عدا في الأوقات التي أنزل فيها إلى القبو، فإنني أشعر أنني نائم. تمرّ أسابيع كاملة قبل أن أشعر بأيّ شيء. وإذا سألتِني ماذا حدث منذ عدّة أيام، فلن أستطيع أن أخبرك.»

تحدّثنا عن عمليّات الهدْم في نهاية شارعنا وكيف سيبدو الأمر لو هدموا منزلنا.

قلت: «سيأتي أحد ما عندئذ ويبحث عن أيّ شيء، ولن يعثر إلا على بعض الآجر المحطّم بين الأعشاب الطويلة.» أغمضت جولي عينيها وصالبت ساقيها على فخذي. كان جزء من ذراعي تحت ثديها، فتمكنت من الإحساس بخفق قلبها.

تمتمَت: «لا يهمّ، أليس كذلك؟» ثمّ راحت تزيح نفسها إلى أعلى السّرير حتى صار ثدياها الكبيران الشاحبان بمستوى وجهي. لمستُ إحدى حلمتيها بطرف إصبعي. كانت قاسية ومجعدة كمثل نواة دراقة. أخذتها جولي بين أصابعها ودلكتها ثم دفعتها نحو شفتيَّ.

قالت: «واصل.» شعرت أنّني دون وزن، وأتحرّك عبر المكان دون إحساس بالصعود أو الهبوط. حين أطبقتُ شفتيّ سرَتْ ارتعاشة ناعمة في جسدها، وجاء صوت عبر الغرفة قال نادبًا: «الآن رأيت كل شيء!»

حاولتُ أن أنسحب على الفور، لكن جولي ما زالت تضع يديها حول عنقي وشدّت من قبضتها أكثر. حجبني جسدها عن رؤية ديريك. داعمة نفسها على كوع واحد، التفتت تنظر إليه.

«هل رأيت؟» قالت بنعومة «آه يا حبيبي!» لكن قلبها، الذي على بعد إنشات من وجهي، كان يخفق خفقًا سريعًا. تحدّث ديريك ثانية وبدا أكثر قُرباً من مكاننا.

«منذ متى يجري هذا؟» كنتُ سعيداً كَوني لا أستطيع رؤيته.

قالت جولي: «منذ وقت طويل، طويل، طويل...»

شهق ديريك شهقة صغيرة مُطلقاً صوتَ اندهاش، أو ربما غضب. تخيّلته يجلس ثابتاً ومنتصباً ويداه في جيبيه. هذه المرّة كان صوته خشناً ومتقطّعاً.

«كل تلك المرّات... حتى أنّك لم تسمحي لي بمجرّد الاقتراب منك!» تنحنحَ بصوت مرتفع، ثم هيْمن صمت قصير. «لماذا لم تخبريني؟» شعرتُ بجولي تهزّ كتفيها. ثم قالت: «في الواقع لا علاقة لك بهذا!»

قال ديريك: «لو قلت لي لكنت رحلت وتركتك لشأنك هذا!»

قالت جولي: «هذا ما كنتَ لتفعله على أيّ حال...

طبيعي، طبيعي...» غضب ديريك الآن. راح صوته يبتعد عن مكاننا.

قال صائحًا: «هذا مقرف. إنّه شقيقك!»

قالت جولي بثبات: «تحدّث بصوت منخفض يا ديريك، وإلا ستوقظ توم!»

«قرف»، كرّر ديريك، وخرج مطبقًا باب الغرفة بقوّة.

قفزت جولي عن السرير وأقفلت الباب واستندت إليه. أصغينا لعلّنا نسمع محرّك سيّارة ديريك يدور، لكن باستثناء تنفّس توم، فإنّ كل شيء كان هادئًا جدًّا ولم يتناهى إلينا أيّ صوت. ذهبَت إلى النافذة وباعدت بين الستائر قليلاً. كان ديريك في الغرفة وقتًا قصيرًا بحيث بدا الآن وكأننا تخيلناه.

«ربما كان في الأسفل»، قالت جولي وهي تجلس إلى جانبي ثانية «ربما يصيح على سو.»

هدأنا دقيقةً أو اثنتين، منتظرين أن تتلاشى أصداء صوت ديريك. ثم وضعت جولي يدها على بطني. قالت: «انظر كم أنت أبيض إزاء يدي.»

أمسكتُ يدها وقسْتُها إزاء يدي. كانتا بالحجم نفسه. ثمّ رحنا نقارن الخطوط على راحتَي أكفّنا، وكانت مختلفة تمامًا. ثمّ راح كلّ منا يستكشف جسد الآخر مطوّلًا. مستلقين على ظهرينا، جنباً إلى جنب، قارنّا أقدامنا بعضها ببعض. كانت أصابع أقدامها أطول من أصابع أقدامي وأنحف. قسنا ذراعينا وساقينا وعنقينا ولسانينا، لكن لم يبد أي منها متشابهاً شبهَ سُرَتينا

ببعضهما: الشّقّ الدقيق نفسه في الدائرة التي كانت مضغوطة إلى جانب واحد، والنموذج نفسه من الالتفافات في التجويف. استمرّ الأمر إلى أن وضعتُ أصابعي في فم جولي مُحصيًا أسنانها فبدأنا نضحك ممّا نفعله.

تمدّدتُ على ظهري بينما جولي ما تزال تضحك. جلسَت فوقي بفخذين منفرجين، وأمسكَت قضيبي وأدخلته فيها. تمّ ذلك بسرعة خاطفة وهدأنا فجأة، غير قادرين على النّظر إلى بعضنا. حبست جولي نَفَسها. كان هناك شيء ناعم في طريقي، وفيما كان يكبُر داخلها كان ينفرج أكثر وكنتُ أتعمّق في الداخل. أطلقَت تنهيدة صغيرة، ومالت بجسدها إلى الأمام وقبّلتني بهدوء على شفتي. كانت تعلو وتهبط بخفة. انطلقت رعشة باردة من بطني وتنهّدتُ أيضًا. أخيرًا نظرنا إلى بعضنا. ابتسمت جولي وقالت: «هذا سهل!» أجلستُ نفسي قليلاً وضغطتُ وجهي على ثدييها. أمسكَت حلمة بأصابعها مرّة أخرى وعثرَت على فمي. حين مصصْتها انطلقت تلك الارتجافة ثانية في جسم أختي. سمعتُ، وشعرت، بنبضٍ عميق منتظم، وبقَرْعٍ بطيء غامض ومنتظم بدا كأنه يصعد عبر المنزل كلّه ويهزّ أركانه. تراجعتُ إلى الخلف وتحرّكتْ جولي إلى الأمام. تحرّكنا ببطء في انتظام مع إيقاع القَرْع إيّاه، إلى أن بدا وكأنّه هو ما يحرّكنا ويدفعنا للمضيّ قدُمًا. خلال لحظةٍ ما حدّقتُ جانبيًا ورأيت وجه توم يُطلّ عبر قضبان سريره.

اعتقدتُ أنه كان يراقبنا. لكن حين نظرت ثانية رأيت عينيه مغمضتين. أغمضت عيني. بعد وقت قصير قررت جولي أنه حان الوقت الانقلاب وتغيير الوضعيّة. لم يكن سهلاً فعل هذا. ساقاي عالقتان تحت ساقيها، وأغطية السّرير في طريقنا. حاولنا أن ننقلب في اتجاهٍ واحد فأوشكنا على السقوط عن السرير. اضطررنا إلى الانزياح نحو الوراء، فشدتُ شعر جولي بكوعي على الوسادة. صاحت «آخ» بصوت مرتفع جداً. رحنا نضحك فنسينا ما كنّا نفعله. وجدنا أنفسنا نستلقي أحدنا إلى جانب الآخر، نصغي إلى صوت القَرْع المكتوم، الصّوت الإيقاعيّ المتتابع القويّ، لكنّه بات أقلّ بطئاً من ذي قبل. ثم سمعنا سو تنادي جولي وتحاول فتح الباب. حين أدخلتْها جولي، وضعت سو ذراعيها حول عنق جولي وضمّتها. قادت جولي سو إلى السرير حيث جلست بيننا مرتجفة وتضغط على شفتيها. أمسكتُ يدها.

قالت أخيراً: «إنّه يحطّمه، لقد عثر على المطرقة وهو الآن يحطّمه.» أصغينا. لم تكن أصوات القَرْع المكتومة مرتفعة الآن ومنتظمة، بل إنّ هناك أحياناً وقفات بين الضربات. نهضت جولي وأقفلت الباب ووقفت قربه. لم نسمع شيئاً بعضَ الوقت. ثم سمعنا وقع خطوات في الممرّ الأمامي. ذهبت جولي إلى النافذة.

«إنه يركب سيّارته.» ساد صمت طويل آخر قبل أن نسمع المحرّك يدور والسيارة تنطلق مبتعدة. كان الصوت الحاد للإطارات على الطريق مثل صوت صيحة.

أسدلت جولي الستائر وجاءت وجلست قرب سو وأمسكت بيدها الأخرى. جلسنا هكذا، مشكّلين صفًّا على حافة السرير. لم ينبس أحدٌ منّا ببنتِ شفة وقتًا طويلًا. ثم بدا كأننا نستيقظ، وبدأنا نتحدث همْسًا عن أمنا. تحدثنا عن مرضها وكيف كان الأمر حين حملناها على الدرج، وحين حاول توم أن يصعد إلى السرير معها. ذكّرتهم بيوم قتال المخدّات حين تُركنا في المنزل وحدنا. كانت سو وجولي قد نسيتا هذا بشكل كامل. تذكرنا عطلة في الريف قبل أن يولد توم، وناقشنا ما الذي كان ليكون عليه رأي أمنا بخصوص ديريك. اتفقنا أنها كانت ستطرده. لم نكن حزينين، كنّا مُثارين وخائفين. واصلنا الخروج من همسنا إلى أن صاح أحدنا «هس!» تحدثنا عن حفلة عيد الميلاد بجانب سرير أمنا ووقوف جولي على يديها. جعلناها تفعل ذلك ثانية. رفست بعض الملابس عن طريقها ورمت نفسها رأساً على عقب في الهواء. أعضاؤها البنيّة الغامقة بالكاد ارتعشت حين نزلت. صفقت أنا وسو بهدوء. واستيقظ توم على صوت ثلاث سيارات ركنت في الخارج، وخبُط أبواب ووقع خطوات سريعة في ممرّنا الأمامي. وخلال فتحة في الستائر، رأينا ضوءًا أزرق دوّارًا عَكَسَ نموذجًا دوّارًا شبيهًا به على الجدار. نهض توم جالساً وحدق فيه بعينين ترفّان. احتشدنا حول سرير الطفل وانحنت جولي وقبّلَته.

قالت: «ها أنت ذا! ألم تكُن نؤمَتُك هانئة؟»

إيان مكّيوان

إيان مكّيوان روائيّ بريطاني وُلد عام ١٩٤٨. وصلت رواياته «الارتياحُ للغرباء» و«كفّارة» و«كلاب سوداء» إلى القوائم القصيرة لجائزة البوكر، وفاز بها عام ١٩٨٨ عن روايته «آمستردام»، وقد فازت كتبه الأخرى بجوائز عديدة. ألّفَ أيضاً سيناريوهات للمسرح والتلفزيون. أدرجته صحيفة التايمز في قائمة أفضل خمسين روائيًّا بريطانيًّا منذ عام ١٩٤٥، وحصد الترتيب ١٩ في قائمة الديلي تيليغراف لأقوى ١٠٠ شخصيّة في الأوساط الثقافيّة البريطانيّة. يُقيم حاليًّا في لندن.

أسامة إسبر

شاعر وصحفي ومترجم سوري وُلد عام ١٩٦٣. يعمل محرراً في مجلة «جدلية» وموقع «تدوين للنشر». صدرت له مجاميع شعريّة وقصصيّة من بينها «شاشات التاريخ» و«مقهى المنتحرين». ترجم من الإنكليزية إلى العربية كتبًا من بينها «أحلام آينشتاين» لآلن لايتمان، و«الكتب في حياتي» لهنري ميلر، و«نشأة النظام الأبوي» لغيردا ليرنر، و«توقيعه على الأشياء كلّها» لإليزابيث جلبرت، وأخرى كثيرة. يُقيم حاليًا في أمريكا.